هيا بنا نلعب

"عن الأوطان والأوثان"

هيا بنا نلعب

"عن الأوطان والأوثان"

د.ياسر ثابت

تدقيق لغوي : د. إيمان الدواخلي

رقم الإيداع : ٢٠١٢/١٦١٠١

I.S.B.N:٩٧٨- ٩٧٧- ٤٨٨- ١٦٧- ١

دار اكتب للنشر والتوزيع

OKTOB.NET

الإدارة : ١٠ ش عبد الهادي الطحان من ش الشيخ منصور، المرج الغربية، القاهرة .

المدير العام : يحيى هاشم

هاتف : ٠١١١٠٦٢٢١٠٣ - ٠١١٤٧٦٣٣٢٦٨

مكتبة اكتب : ٤٠ ش أحمد قاسم جودة من ش عباس العقاد ، خلف سيراميكا كليوباترا ، القاهرة .

هاتف : ٠١١١٤٣٢٨٥٢٥

E – mail :daroktob١@yahoo.com

Facebook : دار اكتب للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى ، ٢٠١٢م

هيا بنا نلعب

"عن الأوطان والأوثان"

د.ياسر ثابت



دار اكتب للنشر والتوزيع



مقدمة

شر البلية ما يضحك.

ونحن العرب لدينا الكثير من المضحكات المبكيات، التي تسترعي الانتباه، وتستدعي التأمل والتفكر.

وحين نقرأ كتاب التاريخ العربي وأسفاره الضخمة، سنكتشف الكثير من المفارقات والخدع المذهلة لشعوبٍ عانت، وعاشت طويلًا تحت حكم استبدادي، يرى في الديمقراطية ترفـًا لا لزوم له، ويعتبر الوطن إرثـًا عائليـًا بامتياز.

مشاهد غابت عنها فكرة الدولة واحترام القانون، واختفى فيها مصطلح الديمقراطية، كما لو أنه فص ملح.. وذاب!

وهذا الكتاب ليس سوى ثمرة مئات، بل آلاف التفاصيل، التي تراكمت في الذاكرة طوال سنوات، ثم انفجرت على هيئة كلمات.

والكلمة أشفّ من البلور، وأقطع من السيف.

إنها مقالات كتبتها على فتراتٍ متباعدة، عن السياسة وأحوالها وأطوارها في الشرق الأوسط، الذي أرهقتنا أحداثه، وأزهقتنا حوادثه.

ولعله من المستغرب أن نجد في عالمنا العربي عنفـــاً يدمر الذات، ويعلن البطولة لمن يفعلها، كما لو أن العنف والقتل والعدوان شيمة عربية أصيلة. مع أن قيم التسامح والعفو هي الأصل، وليست الاستثناء. كذلك الأمر في الأحداث والتصريحات، التي تفوح منها رائحة الطائفية، خضوعـــاً ورضوخـــاً لرؤوس تُسّير الجموع، وتضلل العقل الجماعي العربي، وتعمل على دغدغة مشاعره في الجانب المذهبي. هذه الهستيريا المقلقة تعني ببساطة إلقاء الفرد عقله وإرادته، وتسليمهما إلى القائد أو الزعيم في الدولة أو دار العبادة أو الجماعة، لتصبح "الفرقة الناجية" مستغرقة ومشغولة بحساباتها وطموحاتها الخاصة، بأكثر من اهتمامها بما يحدث في الوطن بشكلٍ عام.

حتى في عصر ما يسمى "الربيع العربي"، أو حفلة الشواء الأولى لعددٍ من الحكام العرب، وجدنا من ينتقد التغيير، ويتحدث عن عواقب الفوضى، ويدعو – مباشرة أو مداورة– إلى الاستكانة إلى ما هو حاصل، بدعوى أنه خيرٌ وأبقى من الزعيم الملهم. في ظل تلك المواقف المرتبكة، والدعوات المتناقضة يتساءل البعض: هل سيجتاز العرب مخاض الآلام الديمقراطي، ويصلون الضفة المنشودة، أم أنهم سيفضلون العودة إلى ضفة الاستبداد هربـــاً من الفوضى؟

ذات يوم قال الزعيم السوفييتي فلاديمير لينين: "اعطوا الأميركيين مزيدًا من الحبال في آسيا، وهم الكفيلون بشنق أنفسهم". واليوم، كثرت الحبال في يد العرب، وزادت المخاوف من هذا الانتحار الجماعي، الناجم عن قطيعة بين المجتمعات والوعي والمعرفة والتخطيط والديمقراطية.

ثمّة من يقولون بحسن نيّة، أو بخوف من المجهول، إن "من نعرفه أفضل ممن لا نعرفه". هذا هو الخوف الكبير حين نكتشفه، لكنه أيضـًا السؤال الإجباري في العالم العربي الآن: هل نستوعب دروس التاريخ، أم ندفن رؤوسنا في الرمال؟

إننا نكتب لأننا نريد من يقرأ لنا، ولأن يدًا واحدة لا تستطيع أن تصفق، هي فقط تضرب الهواء؛ ولكن من دون صوت أو صدى.

وهذه هي جوانب من شهادتنا عن العرب، وقضايا تمس حاضرهم ومستقبلهم.

لن أطيل عليكم.. حان وقت القراءة، وربما الضحك.. والبكاء.

ياسر ثابت

أبوظبي

٢٧ مارس ٢٠١٢

هيا بنا نلعب

تعالوا نلعب لعبة الأسماء!

فلكل إنسانٍ من اسمه - أو نقيضه- نصيب.

دعونا نرى ما يمكن استقراؤه.

نوري "المالكي" اختير رئيســاً للحكومة العراقية لأول مرة في مايو ٢٠٠٦.. ومن رئيس حزب الدعوة إبراهيم "الجعفري"، الذي احتجت عليه قوى مختلفة هي في أغلبها سنية، من عرب وأكراد، إلى نائبه في الحزب"المالكي"، الذي انتهت إليه الحكومة بعد أخذ ورد. "الجعفري" و"المالكي" امتلكا رؤية واحدة، وأجندة متشابهة؛ لكن سُنة العراق رفضوا عهد "الجعفري"، وراهنوا على وضع أفضل مع "المالكي". ويبدو أن أمل كثيرين منهم خاب، بعد أن أذاقتهم الأيام ويلات العهد الجديد.

اللبنانيون تقلبوا في فورة الأحداث، التي أعقبت اغتيال رئيس الوزراء السابق رفيق الحريري، ما بين محامي طرابلس عمر "كرامي"، الذي اتهمته المعارضة آنذاك بأنه يميل إلى حيث تميل دمشق، ونجيب" ميقاتي"، الذي أشرف على إجراء الانتخابات النيابية في موعدها المحدد، وفؤاد "السنيورة" الذي اختير لرئاسة الحكومة في ٣٠ يونيو ٢٠٠٥، ربما لاعتقادهم أن "السنيورة" ورقة رابحة في ظل التحولات السياسية التي يشهدها لبنان.

وعندما ظهرت إلى حيز الوجود حكومة الوحدة الوطنية برئاسة السنيورة في ١١ يوليو ٢٠٠٨، تندّر البعض على مصادفات الأسماء والألقاب الوزارية في حكومة الوحدة الوطنية. فهي حكومة دفاعها مرّ (إلياس المر) وداخليتها بارود (زياد بارود)، عملها فنيش (محمد فنيش) وصحتها خليفة (محمد خليفة) وطاقتها طابور (آلان طابوريان)، تربيتها هيّة (بهيّة الحريري) وثقافتها سلام (تمام سلام)، عدلها نجار (إبراهيم نجار) وماليتها شطحٌ (محمد شطح)، بيئتها كرم (أنطوان كرم)، ولمهجريها... عودة (ريمون عودة).

ولم يُجد سعد الحريري نفعـــاً، فمنذ توليه رئاسة الحكومة في ٩ نوفمبر ٢٠٠٩، أخذ يواجه صعوبات عديدة، خصوصًا مع ظهور مؤشرات على صدور القرار الظني بجريمة اغتيال رئيس الحكومة الأسبق رفيق الحريري، وإصرار وزراء حزب الله وحركة أمل والتيار الوطني الحر على طرح موضوع شهود الزور في القضية، وطلب إحالتهم إلى المجلس العدلي. وأدى ذلك إلى إعلان وزراء تكتل الإصلاح والتغيير وحركة أمل وحزب الله في ١٢ يناير ٢٠١١ استقالتهم للحكومة. ومع استقالة أحد عشر وزيرًا من حكومة الحريري، فقدت الحكومة نصابها الدستوري، ليتم اعتبارها مستقيلة.

وسرعان ما عاد نجيب "ميقاتي" في توقيت بالغ الدقة والحساسية في تاريخ لبنان، لتعود دورة التوتر من جديد بين ما يسمى المعارضة والموالاة في لبنان.

السوريون تمسكوا حتى الآن ١٤ أبريل ٢٠١١ بمحمد ناجي "عطري" الذي شغل المنصب منذ ١٠ سبتمبر ٢٠٠٣، مع ان "عطري" لم ينجح في القضاء على ما تعتبر رائحة فساد واضطرابات تزكم الأنوف.. وكان عندهم منذ العام ١٩٨٠ ولسبع سنوات تلت رئيس حكومة يدعى عبد الرؤوف "الكسم"- مع أنه كان نحيلًا بشكل لافت النظر- أيامها لم يكن أحد في سوريا يجرؤ على أن يغازل امرأة - ولو كانت امرأته- بالقول: يسلم لي هذا "الكسم".. وفي العام ١٩٨٧ سلم الرجل دفة رئاسة الحكومة إلى محمود الزعبي.. الذي انتحر في ٢١ مايو ٢٠٠٠.

أما طريقة الانتحار - التي تكررت مع وزير الداخلية غازي كنعان في ١٢ أكتوبر ٢٠٠٥ - فهي مقتبسة بتصرف عن نص توفيق الحكيم، وعنوانها المعدل هو: رصاصة.. في الفم!

الفلسطينيون انتخبوا من اختاروا إسماعيل "هنية" رئيسًا للوزراء.. ولأنه من قادة حركة المقاومة الإسلامية "حماس" فقد قال بعض الخبثاء إن الرئيس الفلسطيني محمود عباس قرر ألا يشرب الماء أمام أحد، حتى لا يسمع كلمة "هنية".. وقبل ذلك، كان رئيس الوزراء الفلسطيني هو أحمد" قريع" وهو من حيث الشكل والهيئة اسم على مسمى.

رئيس وزراء الجزائر سابقًا هو عبد العزيز "بلخادم".. وهو مقرب من سميه الرئيس عبد العزيز بوتفليقة، حيث شغل قبل ذلك منصب الممثل الشخصي للرئيس الجزائري.. وكاتم أسرار

من عينة "بلخادم" يمكن أن يصبح رئيسـاً للوزراء ما بين غمضة عين وانتباهتها.. وإذا كان "بلخادم" قد سطع نجمه في الجزائر، فإن نجم عبد الحليم "خدام" قد أفل في سماء القيادة السورية، بعد أن شق عصا الطاعة.

وقبل ذلك، تولى مولود حمروش رئاسة الحكومة الجزائرية. وكان في نظر كثيرين ظلًا لا يفارق بوتفليقة، حتى سخر البعض منه بأن اختاروا لكل حرف من حروف لقبه "حمروش" كلمة ذات دلالة، فكانت النتيجة: حامل مظلة الرئيس وقت الشتاء.. وهو ما دأب عليه حمروش لفترة طويلة.. ويوم أعفي حمروش من منصبه، منح البعض بوتفليقة على سبيل التندر لقب: الرجل الذي فقد.. ظله!

رئيس وزراء ليبيا في أواخر عهد القذافي، البغدادي المحمودي، هو طبيب شغل في السابق منصب وزير الصحة.. ولأن السلطات في ليبيا كانت ترفع شعارات قومية تطن في الأذن مثل نحلة، فإن هذا قد يفسر اختيار "البغدادي" ليقود ليبيا.. مثلما كان طاهر"المصري" ذات يوم هو رئيس الحكومة التي تقود دفة الأردن.. و"البغدادي" تولى المنصب بدلًا من شكري "غانم".. وفي عهد "غانم" غسلت ليبيا يدها من كل ما تملكه من برامج أسلحة دمار شامل، ودفعت الحكومة الليبية التعويضات لكل من هب ودب.. من أهالي ضحايا طائرة "بان أميركان" التي تحطمت في لوكربي، إلى أقارب ضحايا ملهى "لا بيل" في برلين.

و"غانم" سبق له أن قال في مطلع يناير ٢٠٠٤ لصحيفة "صنداي تايمز" البريطانية إنه لا يوجد رأي عام في ليبيا، ببساطة لأن قائد الثورة الدائم معمر القذافي - الذي كانوا يغنون له "معمر يا ولد الخيمة.. أنت القائد ديما ديما"- يعرف ما يفكر فيه الشعب الليبي ويترجمه إلى الواقع.. يا لبؤس التفكير ويا لشقاء الشعب!

أحمد "نظيف" تولى رئاسة الحكومة المصرية في ٩ يوليو ٢٠٠٤، وظل رئيســاً للوزراء حتى أطاحت به ثورة ٢٥ يناير.. وربما اختاره الرئيس المصري - سابقــاً- حسني مبارك بعد أن شاهد مسرحية "مدرسة المشاغبين" وتحديدًا ذلك الجزء الذي يتحدث فيه المشاغبون عن مدير الإدارة التعليمية "رابسو" الذي قال عنه "الناظر" حسن مصطفى إنه سينظف الوزارة.. ولكن لا "رابسو" عصره وارد جامعات كندا، ولا أي منظف آخر نجح في تجميل وجه بلد غارق في الفساد والمحسوبية، ويطارده شبح التوريث.. إلى أن نظفت ثورة ٢٥ يناير الشعبية مصر من معظم رموز الفساد، وعوامل الإخفاق في المحروسة.

وربما كانت المفارقة أن مصر حين اختارت أول رئيس وزراء لها بإرادة شعبية، وقع اختيارها على عصام "شرف"، الذي شارك في الثورة حتى سقط نظام الرئيس حسني مبارك.

ويحتفظ الرئيس السوداني عمر حسن "البشير" برئاسة الحكومة منذ ١٦ أكتوبر ١٩٩٣.. غير أن "البشير" تخلى في

اتفاقي مشاكوس ٢٠٠٢ ونيفاشا ٢٠٠٣ عن الجنوب السوداني، عقب مفاوضات جرت تحت ضغط أميركي، قبل أن يؤدي استفتاء تقرير المصير في جنوب السودان إلى إعلان إقامة دولة الجنوب.

معروف سليمان "البخيت" اختير رئيسـاً للحكومة الأردنية رقم ٩٠ في ٢٤ نوفمبر ٢٠٠٥.. ولم يكن حظ "البخيت" الذي عمل سفيرًا لبلاده لدى إسرائيل أفضل من سابقيه، مثل عبد الكريم "الكباريتي" – حكومة عام ١٩٩٣– الذي" أشعل" أزمات عدة في بلاده!

ولم يكن الرجل الذي جاء خلفا للبخيت سوى نادر "الذهبي"، الذي ظل رئيسـاً للحكومة حتى "ذهب" في ٩ ديسمبر ٢٠٠٩. دعونا نشير إلى أن "البخيت" نال فرصة جديدة، حين تم تكليفه بتشكيل حكومة جديدة في الأول من فبراير ٢٠١١، بعد استقالة حكومة سمير زيد الرفاعي.

وفي زمن الحرب، اختارت سوريا جورج "صدقني" وزيرًا للإعلام، الذي عين وزيرًا للإعلام من سبتمبر ١٩٧٣ حتى سبتمبر ١٩٧٤. وشغل جورج صدقني منصب وزير الإعلام في حكومة محمود الأيوبي، التي شهدت تعديلات في صفوفها قبل عشرة أيام من بدء سوريا ومصر حربهما المشتركة ضد إسرائيل، والتي اندلعت في السادس من أكتوبر ١٩٧٣، ويقال إن

"صدقني" أشرف شخصيـــًا على بث خطاب الرئيس السوري الراحل حافظ الأسد عبر شاشة التلفزيون السوري بعد بدء الحرب، وظهر خلاله الأسد ببزته العسكرية قائدًا أعلى للجيش والقوات المسلحة السورية، وتوجه حينها لمواطنيه بالقول: "لسنا هواة قتل وتدمير، إنما نحن ندفع عن أنفسنا القتل والتدمير.. لسنا معتدين، ولم نكن قط معتدين، لكننا ولا نزال ندفع عن أنفسنا العدوان".

وقبل ذلك، شارك "صدقني" في وضع المنطلقات النظرية لحزب البعث العربي الاشتراكي في العام ١٩٦٣ التي أقرها المؤتمر القومي السادس للحزب، والذي انعقد بعد أشهر من تسلم البعث السلطة في سوريا، في مارس من العام نفسه، وكان "صدقني" من الأصدقاء المقربين للرئيس الراحل حافظ الأسد.

وبعد أن وضعت الحرب أوزارها في لبنان، اختير "مصباح الناطور" مديرًا عامـــًا لمؤسسة كهرباء لبنان، ربما على سبيل التفاؤل، مثلما شغل في مصر – وأرجو أن تسعفني الذاكرة– ناجي "شتلة" منصب وزير التموين، وأمين "ميتكيس" منصب وزير الزراعة، وأصبح عبد الخالق "عجينة" وكيلًا لوزارة التموين.. وكرَّت الأيام ليصبح أحمد "ماهر" وزيرًا للخارجية.. في حين احتكر صفوت "الشريف" منصب وزير الإعلام في مصر

المحروسة لأكثر من عقدين من الزمان، قبل أن يتولى رئاسة مجلس الشورى، ومنه إلى سجن طرة عقب ثورة ٢٥ يناير.

والحكايات في هذا المجال كثيرة، لا تخلو من طرافة تدعو إلى البكاء.

سأتوقف عند هذا الحد، قبل أن تستبد بي – وربما بكم أيضاً– رغبة في تطبيق لعبة الأسماء على.. قادة وحكام و"حكماء" العرب.

في عيد ميلاد ذي القرنين

"قريبـــاً سينتهي كل شيء.. آه.. العار هو أيضـــاً له نهاية. الأيام التي تسير بنا إلى المقابر ستنتهي.. لم يبق إلا هذا الحجر بين أيدينا، فلنرمه وينتهي كل شيء" .. كليف باركر- قصة "الوداع".

في ٤ مايو ٢٠١٢ بدأ حسني مبارك عامه الخامس والثمانين.

ولكن الأمر الذي يستحق الاحتفال والاحتفاء هو أن ثورة ٢٥ يناير حالت دون أن يواصل الرئيس المصري السابق رحلته باتجاه تحطيم الرقم القياسي لأكبر حكام مصر عمرًا، وأطولهم حكمـــاً لها في العصر الحديث.. وكلا الرقمين يحملهما محمد علي باشا.. يليه مباشرة حسني مبارك.

يليق به إذًا أن نطلق عليه من الآن فصاعدًا حسني مبارك.. باشا.

وباشوية مبارك لم تأتِ من فراغ. فقد تغلب على جميع من سبقه في حكم مصر.. ولَم يكن أمامه إلا محمد علي باشا، لولا ثورة ٢٥ يناير. إذ إن محمد علي (١٧٦٩-١٨٤٩) مات في سن الثمانين، بعد أن حكم مصر ٤٣ عامـــاً، قبل أن يعزله أبناؤه في سبتمبر من عام ١٨٤٨؛ لأنه قد أصيب بالخرف.. طبعـــاً.

ولنأخذ رئيسي مصر السابقين مثالًا.. فقد عاش جمال عبد الناصر ٥٢ عامـــاً (١٩١٨- ١٩٧٠) ومات السادات عن عمر يناهز ٦٣ عامـــاً (١٩١٨-١٩٨١). أما الرئيس المصري حسني مبارك فقد ظل قابضـــاً على السلطة في مصر، بعد أن تجاوز سن الثمانين (ولا هو في باله)، حتى قام الشعب لإطاحة نظامه.

وإذا أخذنا أحدث الدراسات عن متوسط عمر الذكور من البشر في مصر، فسيتضح لنا أنه كان من المفترض أن يكون مبارك في ذمة الله منذ أكثر من ١٠ أعوام. فمتوسط العمر الذي نتحدث عنه يدور في فلك ٦٨ عامـــاً. وهذا يعني أحد أمرين لا ثالث لهما: إما أن مبارك استثناءٌ أقرب إلى الابتلاء.. أو أنه ليس من هنا، وإنما من هناك.

تذكروا أن غريمه الوحيد في سباق الحكم القياسي هو ذلك الرجل المولود في مدينة قولة بمقدونيا.. يعني في الأساس: حاكمٌ ليس من هنا.

ولابد هنا أن نشير إلى أن مبارك دخل- ربما دون أن يدري- مرحلة الشيخوخة. إذ يرى باحثون تقسيم المسنين من خلال مدخل العمر الزمني إلى فئات أكثر تخصيصـــاً، تشمل الكهل (بين ٦٠ و٧٥ عامـــاً)، والشيخ (بين ٧٥ و٨٥ عامـــاً) والهرم

(بين ٨٥ عامـاً و١٠٠ عام).. أما المعمر فهو من بلغ ١٠٠ عام فأكثر.

على أن إنجاز الحكم لفترة قياسية وزمن قياسي، الذي تمتع به مبارك - حتى قيام ثورة ٢٥ يناير- كان ممتدًا ليشمل باقي أنحاء الوطن العربي.. فقد كان الحاكم العربي الأكبر عمرًا، بعد العاهل السعودي الملك عبد الله بن عبد العزيز، ويليهما أمير الكويت الشيخ صباح الأحمد الصباح. وبطبيعة الحال، فإنه ليس من المستغرب أن يكون مبارك مسبوقـاً بملك وسابقـاً لأمير.. فهو كما قلنا: باشا.

ولا نجاوز الحقيقة حين نقول إن مبارك كان منطلقـاً قبل ثورة يناير باتجاه العالمية بكل المقاييس. فمن بين زعماء نحو ٢٠٠ دولة في عالمنا، لم يكن أمامه - حتى لحظة تنحيه عن الحكم في فبراير ٢٠١١- في قائمة الزعماء والحكام الأكبر عمرًا، سوى سبعة منافسين بالتمام والكمال، معظمهم حكام شرفيون لبلادهم.

القائمة المذكورة تضم العاهل السعودي الملك عبد الله بن عبد العزيز، ورئيسي زيمبابوي روبرت موغابي، وإثيوبيا جيرما ولد جورجيس، وهما من مواليد عام ١٩٢٤.. ورئيس إيطاليا غريغوري نابوليتانو المولود عام ١٩٢٥.. إضافة إلى ملكة بريطانيا إليزابيث الثانية، والرئيس السنغالي عبد الله واد، وهو

من مواليد عام ١٩٢٦ أي أنهم يكبرون مبارك بعامين فقط.. وملك تايلاند بوميبون أدونيادي المولود عام ١٩٢٧.

ولو كان مبارك صمد قليلًا في الحكم، لكان تخلص من منافس آخر على القائمة، ونعني بذلك عبد الله واد، الذي أقر في مارس ٢٠١٢ بهزيمته في الانتخابات الرئاسية، وهنأ خصمه ورئيس وزرائه السابق ماكي سال، الذي فاز بالمنصب.

وإذا كان الصافي سعيد قد أطلق على الرئيس التونسي الراحل الحبيب بورقيبة في كتابه "بورقيبة.. سيرة شبه محرمة" لقب "وحيد القرن" باعتبار أن الرجل ولد في العام ١٩٠٠ ثم رحل في العام ٢٠٠٠.. فلم لا نطلق على مبارك لقب "ذو القرنين" – لاحظوا أنه من مواليد برج الثور– بعد أن عاش القرنين العشرين والحادي والعشرين.

وبمناسبة بورقيبة.. فقد قال الرجل يومـــًا، لمجموعة من وزرائه ورجاله المقربين، في أواخر ستينيات القرن العشرين: "في يومٍ ما سأنحرف عن الطريق، وسأهذي بأي شيء، ولكن لا أحد منكم سيمنعني عن ذلك، أو يوقفني عن الانحراف".. إلى أن انتهى به الأمر سجينـــًا ومقعدًا وبائســـًا في قريته: المنستير.

لكن المسألة لا تقف فقط عند عامل السن، فهناك أيضـــًا قضية أهم تتعلق بحجم الإنجاز السياسي.

وإذا كان مبارك عاش -كرجل عسكري- على الضربة الجوية الشهيرة، أثناء حرب أكتوبر.. فإنه، بعد أن انتقل من العسكرية إلى الحياة المدنية والسياسية عام ١٩٧٥، بتعيينه نائبــًا، ثم مجيئه رئيســًا عام ١٩٨١، ظل على الدوام في حاجة قوية إلى ضربة سياسية، تتوازى مع الضربة الجوية، بحيث تسعف مبارك السياسي لا العسكري، وتسعف العصر كله، والنظام كله، والعهد بكامله، حين يأتي فيما بعد، مَنْ يفتش عن الإنجاز السياسي، الذي يتساوى مع الإنجاز العسكري، في تاريخ هذا الرجلِ.

غير أن هذا لم يحدث، لتفلت فرصة مبارك في تحقيق إنجاز حقيقي يحفظه له التاريخ.

وأقترح بهذه المناسبة أن يكون احتفالنا في مايو ٢٠١٢ بذكرى ميلاد مبارك، بما يتناسب وحجم الإنجاز الذي حققه في عهده الميمون.

وميمون يا ميمون.

صاحب الضربة الأرضية

الحمد لله أن الرئيس المصري السابق حسني مبارك ليس زهير بن أبي سلمى.

فشاعر الحكمة قال في معلقته:

سئمتُ تكاليف الحياة ومن يعش.. ثمانين حولًا لا أبالك يسأم.

لكن مبارك لا يبدو أنه سئم حتى ساعته وتاريخه.

ربما لأن الرجل يرى – كما قال مستشاره السياسي أسامة الباز– أنه لا يوجد أحد في مصر يستطيع أن يقود البلاد كما يفعل.. أو لأن مبارك، الذي قال يومـًا إن منتهى طموحه بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ أن يكون سفيرًا في "بلاد الإكسلانسات"، ويقصد بذلك تولي منصب سفير في عاصمة غربية، مثل لندن.. وجد نفسه فجأة في موقع الحاكم الفرعوني، الذي يهتف ويصفق له، أينما حل، ثلة من الأعوان والمأجورين والمخبرين وعدد من السذج، الذين تشابه عليهم البقر، أو ولدوا وأيديهم تصفق بطريقة غير إرادية.. في حين يرتج هو بابتسامته أو ضحكته، التي لا يحمد بالنظر إليها على مكروه سواه.

والذاكرة لا تنسى أن شخصـًا من عينة سمير رجب، رئيس مجلس إدارة دار التحرير سابقـًا، قرر في يوم الاستفتاء على بقاء

مبارك لفترة رئاسية سابقة – ضمن الفترات الرئاسية التي تولاها تباعـًا– أن يضع في الجانب الأيسر من مقالته على الصفحة الأخيرة من جريدة "الجمهورية" آية قرآنية تقول "إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله.." (الآية العاشرة من سورة الفتح).

الله عليك يا سمير.. والله أكبر.

وربما أيضًا لأن مبارك، الذي وعد عقب إفلاته من رصاص الملازم أول خالد الإسلامبولي ورفاقه في حادث المنصة، بأن يتولى رئاسة المحروسة لفترة واحدة.. ومع أن مبارك مازال يعاني من طنين في أذنيه، يعزوه خبيثٌ مثلي إلى أن أذنيه تحفظان حتى الآن دوي الرصاص في حادث اغتيال الرئيس أنور السادات في عام ١٩٨١.

أقول: مع ذلك، فإن مبارك تراجع عن وعده، الذي نشرته الصحف آنذاك، ومن بينها صحيفة "الأخبار"، التي خرجت به عنوانـًا رئيسيـًا.. إيمانـًا منه بأن مصر لم تنجب أحدًا بعده يستطيع قيادة البلاد إلى المجهول كما يفعل.

وللتاريخ، فإن رئيس الوزراء الماليزي السابق محاضر محمد تولى قيادة بلاده في العام نفسه الذي أصبح فيه مبارك رئيسـًا لمصر.. وكانت ماليزيا آنذاك في مرتبة سياسية واقتصادية أدنى بكثير من مصر.. فانظروا إلى أين وصلت ماليزيا اليوم، التي

استهزأ بها عادل إمام في مسرحية "مدرسة المشاغبين" وهو يتحدث عن عاصمتها كوالالمبور.. وإلى أين انتهت مصر!

تراجع دور هذا الوطن.. من السياسة إلى العلم والفن والرياضة والأدب.. واكتفينا بمشاهدة مسلسل احتلال عواصم عربية مثل بغداد، وتمزيق دول أخرى مثل السودان، التي تعد بالضرورة امتدادًا للأمن القومي المصري.. وخاف وزير خارجيتنا أحمد أبوالغيط أن يلتقي وزير الخارجية الفلسطيني – في حكومة تقودها "حماس"– محمود الزهار، خلال زيارة سابقة لمصر.. في حين كان أقصى ما فعله وزير خارجية سابق – أحمد ماهر– لكسر الحصار الإسرائيلي المفروض على الرئيس الفلسطيني الراحل ياسر عرفات.. هو إهداؤه بعض المعلبات.

والمضحك المبكي أنهم غضبوا يومـــًا من الكاتب الصحفي محمد حسنين هيكل، عندما قال في منتصف تسعينيات القرن العشرين: هذه سلطة شاخت في مواقعها.. مع أنه بوسع أي شخص الآن أن يعيب على هيكل هذا الخطأ الإملائي الساذج في كلمة: شاخت.

في عهد مبارك، أكل المصريون من صفقات المبيدات المسرطنة، التي تورط فيها كثيرون في قضية فساد وزارة الزراعة، من بينهم يوسف عبد الرحمن رئيس مجلس إدارة بنك التنمية والائتمان الزراعي سابقـــًا، ورئيس مجلس إدارة البورصة

الزراعية، وراندة الشامي المستشارة الفنية بالشركة المصرية لإنتاج وتسويق وتصدير الحاصلات الزراعية.

في عصر رجل الشرق الأوسط المريض، استنسخت الدولة نماذج لا تحصى من "الحباكين"، نسبةً إلى رئيس مجلس إدارة الشركة القابضة للصناعات الهندسية عبد الوهاب الحباك، الذي أسدلت محكمة أمن الدولة العليا في ١٤ يوليو ١٩٩٧ الستار على قضيته، وعاقبته بالسجن ١٠ سنوات، وتغريمه ما يعادل ٩٠ مليون جنيه، بعد إدانته بالكسب غير المشروع، والاستيلاء على أكثر من مائة مليون جنيه، أثناء عمله في الشركة القابضة.

وفي غفلةٍ من الزمن.. تزوج الفساد عرفيـــًا بالفضيحة في مختلف شركَات ومؤسسات وأجهزة الدولة.. وهكذا هرب صاحب العبَّارة الغارقة، ممدوح إسماعيل، عضو مجلس الشورى، المرفوعة عنه الحصانة، وصاحب عبَّارات "السلام"، بعد أن راح أكثر من ألف مصري ضحية غرق عبارته.. وقبله هرب كثيرون، مثل رامي لكح الذي يتسكع الآن في فرنسا، وعليه نحو ٣ مليارات و٢٠٠ مليون جنيه ديونـــًا للبنوك.. ومحمد حاتم الهواري، صاحب شركة الإسكندرية للصلب، الهارب من تنفيذ حكم محكمة جنايات القاهرة بالسجن ١٥ عامـــًا في أغسطس من عام ٢٠٠٤ بتهمة الاستيلاء على مليار و٨٠٠ مليون جنيه من أموال بنك القاهرة.

وبعد طول انتظار، وفي سبتمبر من عام ٢٠٠٧، ألقت مباحث تنفيذ الأحكام بالجيزة القبض على رجل الأعمال تيسير الهواري، الهارب من تنفيذ أحكام بالحبس وصلت إلى ٨٠ عامـــاً. كان المتهم قد استولى علي ملايين الجنيهات من عدة بنوك، وتجري محاكمته في السنوات الأخيرة أمام محاكم مختلفة. وصلت الأحكام إلى ٢٩ حكمـــاً جزئيـــاً، مدة الواحد منها ٣ سنوات، والحبس سنة في قضية أخرى، ثم سنتين و٦ أشهر في قضية ثالثة.

وهناك أيضًا من رجال الأعمال الهاربين محمود وهبة، الذي استولى على ٣٠٠ مليون جنيه من بنكي الأهلي وأميركا اكسبريس.. وهاني يعقوب، شقيق الجراح العالمي مجدي يعقوب، والذي هرب بنحو ٢٠٠ مليون جنيه، وتوفيق زغلول، الهارب بنحو ٥٠ مليونـــاً، ومبارك حلمي ٥٠٠ مليون جنيه، ومحمد الجارحي ٧٠٠ مليون جنيه.. والحبل على الجرار.

وفي عهد مبارك الميمون، فاحت رائحة قضية شركة النصر للمسبوكات، التي بلغ حجم الضرر المالي فيها مليارًا و٤٠٠ مليون جنيه، أهدرت خلال فترة تصل إلى ستة عشر عامـــاً، دون أن يشعر بالأمر أحد. في هذه القضية، بلغت خسارة الشركة ٤ مليارات و١٠٠ مليون جنيه، في الفترة ما بين عامي ١٩٩٣ و٢٠٠٠ في واحدةٍ من كبرى قضايا الفساد، وتورط

فيها ٢٠ شخصـــاً، بينهم رئيســـاً مجلس إدارة الشركة صلاح عزام وأسامة عبد الوهاب.

والأعجب في اتهام أسامة عبد الوهاب، أنه تم تكريمه من قبل مبارك، كواحد من أوائل رجال الصناعة، ونال وسام الاستحقاق من الدرجة الأُولى في عام ١٩٩٨. وكان هذا الوسام هو بداية انطلاقه في عالم الفساد، مستمدًا قوته وجرأته منه. تمامـــاً مثلما تم تكريم المهندس الحباك بالوسام نفسه، قبل أن يتهم ويدان بالفساد.

ومثلما هربت علية العيوطي – بطلة مسلسل نواب القروض– بملايين الدولارات إلى فرنسا.. وقبلها هدى عبد المنعم، التي هربت إلى اليونان، بعد أن حوكمت في القضية رقم ٣٥٥٦ لسنة ١٩٨٤ بحبسها ثلاث سنوات مع الشغل، لإصدارها شيكـــاً من دون رصيد بقيمة ٥٠ مليون جنيه.. ظهرت أيضًا منى الشافعي الملقبة بالمرأة الحديدية، التي استطاعت الاستيلاء على ٤٨ مليون جنيه من أموال شركة النصر للتصدير والاستيراد، لدى البنك الأهلي فرع النصر، بمساعدة بعض قيادات الشركة.

وفي سجل الفاسدين في عهد مبارك، يبرز اسم عبد الله طايل، رئيس مجلس إدارة بنك مصر اكستريور السابق، ورئيس اللجنة الاقتصادية بمجلس الشعب في دورة العام ٢٠٠٠ وحتى حكم

محكمة جنايات القاهرة عليه في ٢٦ أكتوبر ٢٠٠٤ بسجنه ١٤ عامـــا، هو و١٣ متهمـــاً آخرين، بتهمة الاستيلاء على ٥٠٠ مليون جنيه من أموال البنك، عن طريق التربح والإضرار العمدي بالمال العام، وتلقي رشىً مالية وعينية.

وفي ظل مبارك، قاد إعلام "الريادة" ثم مجلس الشورى صفوت الشريف، الذي كان حوكم في نهاية عقد الستينيات – أيام كان برتبة رائد في جهاز المخابرات– لقيامه بتصوير فنانات وقادة ومسؤولين عرب وأجانب في الفراش، بقصد الابتزاز.. لا عجب إذاً أن تستيقظ مصر في عام ١٩٩٧ على قضية اتهام ممدوح الليثي رئيس قطاع الإنتاج سابقـــاً بالقوادة، في قضية الشيخ عبد العزيز الإبراهيم والفنانة شيرين أبوالنصر، قبل أن يقال إنه زواج مكتمل الأركان. وفي العام ٢٠٠٢ ضُبطَ محمد الوكيل رئيس قطاع الأخبار بالتليفزيون سابقـــاً، بالصوت والصورة، وهو يتلقى رشى.. وهاهو يقضي الآن عقوبة السجن لمدة ١٨ عامـــا.

وتولى وزارة الثقافة لعقدين كاملين فاروق حسني، المسؤول الأول عن ضياع وتهريب آثار مصر، وإهمال أخرى، مما أدى إلى حريق المسافر خانة وباب العزب.. وجرائم أخرى مثل حريق مسرح قصر ثقافة بني سويف في ٥ سبتمبر ٢٠٠٥، الذي التهم عشرات الضحايا، بينهم عدد من خيرة رجال المسرح نقدًا وإخراجـــاً.

وهكذا بدت مصر في أواخر عهد مبارك وكأنها بناية تحترق.. فأما الحريق الذي في الأعلى، فلا مرد له؛ لأن أجهزة الأمن وعيون وآذان النظام اتفقت على أن تبلغ ساكن الطابق العلوي بأن "كله تمام"، وأن الحريق في الأدوار السفلية سببه "القضاء" – ماركة هشام البسطويسي ومحمود مكي نائبي رئيس محكمة النقض– والقدر.. وأما الحريق الذي في الأسفل، فلعله يؤدي إلى صهر معدن هذا الوطن، فينفث الخبيث ويبقى المعدن الأصيل قويـــاً صلبـــاً، في مواجهة المحن والإحن.

إنه حريقٌ يذكرنا –وفي قلوبنا غصة– بحريق قطار الصعيد، الذي أودى بحياة أكثر من ٤٠٠ شخص في العام ٢٠٠٢.. ومحرقة قرية درنكة بمحافظة أسيوط في العام ١٩٩٤، التي راح ضحيتها أكثر من ألف قتيل، بعدما نزلت عليهم كرات من نار الإهمال، إثر اختلاط مياه السيول التي اجتاحت قريتهم بالمواد البترولية، التى تسربت من خزانات أقامتها الجمعية التعاونية للبترول في مخر السيل، على سفح جبل أسيوط الغربي.

حريقٌ يشتعل في جسد وطن، ونحن في انتظار سماع ارتطامٍ لا نملك منعه.

وفي هذه المناسبة التاريخية، التي لا تُنسى، أقترح تغيير تسمية مبارك في الإعلام المصري من: صاحب الضربة الجوية، إلى: صاحب الضربة الأرضية.. فقد نزل علينا في بر مصر كالصاعقة

التي لا تبقي ولا تذر.. وأخذ يردد الإفيه المسرحي القديم: "أنا مبسوط كده.. أنا مرتاح كده".

حتى وهو مستلقٍ على سريره الطبي في قفص المحاكمة، يرد على نداء القاضي عليه لإثبات حضوره بالقول: "موجود يا فندم" ، بقي مبارك مجرد تذكرة وعبرة لكل من تابع قائمة الاتهامات الموجهة إليه، وهي للتأريخ كالتالي:

- الاتهام الأول: أسندت النيابة العامة للمتهم الأول حسني مبارك، اشتراكه بطريق الاتفاق مع حبيب العادلي، وزير الداخلية الأسبق، وبعض قيادات الشرطة المحالين إلى محاكم الجنايات، في ارتكاب جرائم القتل العمد مع سبق الإصرار المقترنة بجرائم القتل والشروع في قتل بعض المشاركين في المظاهرات السلمية بمختلف محافظات الجمهورية، اعتبارًا من يوم ٢٥ يناير للاحتجاج على تردي أوضاع البلاد، وأن مبارك قام بتحريض بعض ضباط وأفراد الشرطة على إطلاق النار من أسلحتهم على المجني عليهم، ودهسهم بالمركبات لقتل بعضهم، ترويعـــاً للباقين، وحملهم على التفرق وإثنائهم عن مطالبهم.

العقوبة: ينص قانون العقوبات على معاقبة كل من قتل أو حرض على القتل بعقوبة تبدأ من السجن المشدد ١٥ عامـــاً وتصل إلى الإعدام شنقـــاً.

- الاتهام الثاني: أسندت النيابة العامة لمبارك تهمة حصوله لنفسه ولنجليه، علاء وجمال، على عطايا ومنافع عبارة عن (قصر على مساحة كبيرة وأربع فيلات وملحقاتها بمدينة شرم الشيخ تصل قيمتها إلى ٤٠ مليون جنيه) بأثمان صورية مقابل استغلال نفوذه الحقيقي لدى السلطات المختصة، بأن مكن المتهم حسين سالم من الحصول على قرارات تخصيص وتملك مساحات من الأراضي بلغت ملايين الأمتار المملوكة للدولة بمحافظة جنوب سيناء في المناطق الأكثر تميزًا بمدينة شرم الشيخ السياحية.

العقوبة: ينص القانون على عقوبة تبدأ بالسجن المشدد من ٥ إلى ١٥ سنة.

- الاتهام الثالث: وهو خاص باتفاق تصدير الغاز لإسرائيل بأسعار متدنية، إذ أسندت النيابة إلى مبارك تهمة الاشتراك مع وزير البترول الأسبق سامح أمين فهمي وبعض قيادات وزارة البترول ارتكاب جريمة تمكين حسين سالم من الحصول على منافع وأرباح مالية بغير حق تزيد على ٢ مليار دولار، وذلك بإسناد شراء الغاز الطبيعي المصري للشركة التي يمثلها، ورفع قيمة أسهمها وتصدير الغاز ونقله إلى إسرائيل بأسعار متدنية أقل من تكلفة إنتاجه، وبالمخالفة للقواعد القانونية واجبة التطبيق. وأوضحت النيابة أن هذه الاتفاقية تسببت في الإضرار بأموال الدولة بمبلغ ٧١٤ مليون جنيه.

العقوبة: السجن المشدد من ٥ إلى ١٥ سنة .

إن مبارك لم يكن قد بقي أمامه – قبل تنحيه عن السلطة– سوى محمد علي باشا، ليصبح الحاكم الأكبر عمرًا والأطول بقاء في السلطة في تاريخ مصر المعاصر.

وبما أنه لم يسأم حتى سئم منه الشعب، فلا بأس من القول: سئمنا.

ولا عزاء لزهير بن أبي سلمى.

امبراطورية ميم

بدا الأمر كما لو أنه بروفة على منصب سيدة مصر الأولى.

ففي أول ظهور لها في حدثٍ عام كبير، تمادت وتبخترت خديجة، ابنة المقاول المعروف محمود يحيي الجمَّال، في قاعات المنتدى الاقتصادي العالمي، الذي استضافته شرم الشيخ في مايو ٢٠٠٦.. وبدت ابنة الرابعة والعشرين، في كامل زينتها، نجمة المنتدى، وهي تدخل وتخرج من قاعة الاجتماعات برفقة حماتها سوزان مبارك.. وتعطفت أكثر، فتحدثت مع صحفيين ومصورين تحلقوا حولها.

خديجة الجمَّال، التي كانت مجرد خطيبة لجمال مبارك حينذاك، اختارت الجلوس بين جمال مبارك ووزير الخارجية المصري – حينذاك– أحمد أبوالغيطن في الصف الأول، في افتتاح قمة المنتدى.. كما حضرت فتاة الجامعة الأميركية مع حماتها ورشة العمل، التي شارك فيها "جيمي" الأمين العام المساعد للحزب الوطني، ورئيس لجنة السياسات بالحزب الحاكم في ذلك الزمن، حول الإصلاح السياسي في العالم العربي.

ولكن ما علاقة خديجة بالمنتدى؟ وما هو سبب حضورها جلساته؟ ومن هو الذي دعاها أصلًا للحضور وسط ألف شخصية سياسية واقتصادية لها وزنها؟ أسئلة وعلامات استفهام تحتاج إلى إجابات واضحة.

وبينما حار البعض في التساؤل عما إذا كانت خديجة شقراء بالميلاد أم بالتجميل.. بدا واضحـاً لكثيرين أنها حضرت لتدشين صفتها المنتظرة كزوجة لولي العهد، الذي كان يغذ الخطى حينذاك نحو العرش في تلك الجملوكية – أي الجمهورية الملكية– في ربوع مصر المحروسة.

ولأن الرئيس المصري – حينذاك– حسني مبارك ألقى كلمة في افتتاح المنتدى الاقتصادي العالمي، وتبعته قرينته سوزان بكلمة أخرى، كما فعل جمال الأمر نفسه، فإن البعض لم يستبعد أن تلقي خديجة كلمة مفاجئة هي الأخرى عنوانها: أهمية أن تكوني زوجة رجل مهم!

وفي هكذا ظروف، تبدو الصورة مضحكة.. ماذا لو أن القائمين على المنتدى صححوا خطأهم وأسموه "منتدى مبارك العائلي" أو "امبراطورية ميم" نسبة إلى مبارك وشركائه في قصر العروبة والحكم؟ ألم يكن ذلك التوصيف أكثر دقة من اسمه المعلن؟ أقول هذا، وفي ذهني ما قاله مبارك في افتتاح المنتدى من أن الإصلاح ينبغي أن "يتبنى نهجـاً حكيمـاً ومتدرجـاً يضمن استمراره، ويحاذر من طفرات متسرعة تتعجل نتائجه، فتؤدي إلى الفوضى وانتكاس مسيرته".. وشدد مبارك على أن الإصلاح في المنطقة لن يكون الطريق إلى تسوية للقضية الفلسطينية، بل العكس هو الصحيح.

وكلام مبارك كان يعني ببساطة أنه علينا وعليكم بخير.. وأنه لا داعي للتفكير في الإصلاح خلال الألفية الثالثة.. وإنما يتعين استيعاب متغيرات العصر في هذه الألفية.. وعندما تحل الألفية الرابعة فسيكون لكل حادث حديث.

وبكلمة أخرى: في المشمش!

جمال مبارك أدلى بتصريحات في الاتجاه ذاته.. وقال إن عملية الإصلاح "يمكن أن تشهد انتكاسات" إلا أنها مستمرة، لكنه لم يوضح إلى أين كانت تسير مصر في عهد الأب القائد والابن الرائد.

الكلام نفسه ردده بأسلوب ببغائي رئيس الوزراء المصري – حينذاك– أحمد نظيف، الذي قال للصحفيين قبل افتتاح المنتدى إن الحكومة المصرية ليست في عجلة لتغيير النظام السياسي.. بل إن نظيف قال بالحرف الواحد، ردًا على سؤال بشأن وتيرة الإصلاح في المحروسة، إنه "لن يحدث ذلك في شهر أو شهرين أو ستة بل سيستغرق أعوامـــًا.. لدينا الوقت لسنا في عجلة من أمرنا".. والذريعة جاهزة: الإسلاميون.

نظيف، الذي اختاره مبارك كأطول رئيس وزراء في تاريخ مصر من حيث القامة، وليس بالضرورة القيمة، في محاولة للإيحاء بأنه عصر الطهارة، مادام لديه رئيس حكومة يحمل مثل هذا الاسم النزيه.. أقول: نظيف أوضح أن الحكومة المصرية "تعيد

الحسابات، بعد أن نجح الإسلاميون في كسب مواقع عندنا وفي فلسطين والعراق".. في إشارة إلى فوز جماعة الإخوان المسلمين بنحو ٢٠٪ من مقاعد البرلمان في الانتخابات البرلمانية المصرية عام ٢٠٠٥، وفوز حركة حماس في الانتخابات العامة الفلسطينية، وحصول الائتلاف الموحد في العراق على الغالبية البرلمانية في تلك الفترة.

الرجل قال، وبراءة الأطفال في عينيه، ردًا على قمع واعتقال قوات الأمن للمتظاهرين لمناصرة قضاة مصر الشرفاء: "لماذا نلوم الشرطة؟.. بصراحة نفد صبري إزاء توجيه الناس اللوم لمن يحاولون الحفاظ على السلم في مواجهة من يحاولون تقويض السلم".. أعتقد والله أعلم أن "نفد صبري" هذه هي أخت غير شقيقة للفنان سمير صبري!

ولكن ما لنا ننشغل بمستقبل مصر، ونحار في تصور ملامحه، في ظل قضايا الإصلاح وتعديل الدستور وإلغاء قانون الطوارئ وكارثة التوريث.. وخديجة الجمَّال أعطتنا من دون أن ندري إجابة شافية على جميع تساؤلاتنا.

إنها مسرحية هزلية من الطراز الأول، مأخوذة عن مسلسل كوميدي سوري، يعود تاريخ عرضه إلى عام ٢٠٠٠.. اسمه: حكم إلى الأبد.. مع عائلة الأسد.

الفارق الوحيد أن المسرحية حملت العنوان التجاري: عزبة الزعيم.. لصاحبها امبراطورية ميم!

القضاء العالي والأحذية الواطئة

استفزتني الصورة، وأنا أتأمل تفاصيلها، إلى أن شاركني في عذاب تأملها صديقٌ لي.

سطران على موقع هيئة الإذاعة البريطانية (مايو ٢٠٠٦) رافقا الصورة، التي تذبحنا من الوريد إلى الوريد: لقي هذا المتظاهر عقابــاً، قبل أن يتم القبض عليه مع آخرين، خرجوا للمطالبة بإصلاحات، ولإظهار التأييد لرجلي القضاء المتهمين.

كل هذا الضرب والركل، فقط لأن هناك من تضامن بطريقة سلمية مع القضاء المصري النزيه، ممثلًا في نائبي رئيس محكمة النقض في مصر –حينذاك– المستشارين هشام البسطويسي ومحمود مكي.

عندي سؤال لرجال الأمن والمباحث و"من لف لفهم": من يدفع لكم الأجر الذي تشترون به هذا الحذاء الثقيل، الذي تركلون به هذا المواطن، بعد أن انفردتم به، كما ينفرد قطيع من الضباع بفريسة؟

إنه الوطن.. وأبناء هذا الوطن.. هم الذين يدفعون ضريبة انتمائهم لمصر.. فقط كي تنالوا رواتبا تشترون بها من بين ما تشترون.. أحذية تركلوننا بها.

أيتها الأحذية.. توقفي عن ركلنا.

أيتها "الأجهزة".. توقفي عن قمعنا.

أيتها السلطة الغاشمة.. ارحمينا من "هذا الحب القاسي" كما يقول الشاعر محمود درويش!

ولنتذكر جميعا أن الفارق كبير.. كبير جدًا.. بين دار القضاء "العالي".. وبين الأحذية الواطئة، التي تدوس وتركل وتهين المواطن.

وشتان بين من يتضامنون مع القضاء.. ومن نال منهم القدر.. بالقدر الذي يستحقونه.

واسألوا زهرة شباب مصر، الذين قادوا ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١، وأجبروا الرئيس حسني مبارك على التنحي، وسقوط أركان نظامه واحدا بعد الآخر، قبل أن تتداعى الدولة البوليسية، وينهار أمن الدولة، الذي طبق حيل التجسس والتنصت والتعذيب ضد كثير من أبناء الشعب.

كلهم سقطوا، أو في سبيلهم إلى السقوط؛ لأن الجرائم ضد الشعب لا تسقط بالتقادم.

الدموع لا تأتي من المنديل

"ليلنا صعب اليوم

والطيران يتقدم أكثر في الجنوب

وبيروت بانتظار مصير أسود الليلة

الله يستر".

كلماتها في بريدي الإلكتروني خنقت ما تبقى لدي من كلمات.

لم أجد ردًا.. ضاعت مني الكلمات مع أنني كنت أود أن أقول لصديقتي إن الحرية ليست قطعة بيتزا... وإنما كلٌ متكامل.

كنت أود أن أقول لها إن الحرية لا تباع في السوبر ماركت.. وإن هناك من يرى أن الثمن الباهظ، الذي ندفعه الآن، قد يوفر علينا ما هو أغلى ثمنـــًا في الغد القريب.

إن أحزاننا يا صديقتي مربوطة إلى بعضها البعض بخيط غير مرئي.

والدموع يا سيدتي لا تأتي من المنديل.

لم أرد على قلقها.. كيف ترد على شخص عزيز عليك، حين يقول لك إنه خائف وقلق على نفسه ووطنه؛ وأنت جالس إلى

حاسوبك تحت أجهزة التكييف، تحتسي قهوتك المفضلة.. وربما تتابع الحرب عبر شاشات الفضائيات.

لكن الآخرين أيضـــاً لا يردون.. كيف يردون وفي لبنان نفسها من يغسلون أيديهم بالماء والصابون مما جرى؟.. بل إن كلمة لبنان أمام مجلس الأمن الدولي، التي ألقاها السفير نهاد حمود، جاء فيها إن حكومة لبنان غير مسؤولة عن أسر الجنديين الإسرائيليين. رسالة للعالم أجمع مفادها: إننا منقسمون في لبنان حتى النخاع حول عملية حزب الله.

وبغض النظر عن أي موقف مؤيد أو معارض للعملية، فإن من حقنا أن نتساءل: هل كان منتظرًا من حزب الله أن تطلب الإذن لتنفيذ عملية "الوعد الصادق"، أو تستشير الحكومة في شن هجوم لقتل وأسر قوات احتلال؟!

لسان الحال في لبنان هو: لا تنتظروا عونـــاً من الأشقاء.. فقد صدر خلال الساعات الماضية بيانان، كتبهما شخص واحد مترو في أحد مكاتب القاهرة أو فيلات عمان.

والبعض رأى أنها بياناتٌ صادرة من قبور.. لا من قصور.

ففي زمن قياسي، تمخض جبل محادثات الرئيس المصري حسني مبارك، والعاهل الأردني الملك عبد الله الثاني، فولد بيانـــاً

مشتركـــًا، حذرا فيه الأطراف العربية للأزمة من الانجراف إلى مغامرات ومواجهات غير محسوبة، تتحملها شعوب المنطقة.

وإذا عُرِفَ السبب.. بطلَ العجب!

فالرئيس مبارك اتبع مبدأ: لا يرى لا يسمع لا يتكلم.. ربما لأنه كان مشغولًا بتمهيد الطريق أمام قرة عينه وفلذة كبده جمال، كي يصبح رئيس مصر القادم، حتى إنه قال في حديث صحفي عام ٢٠٠٦ إنه لا داعي لوجود نائب للرئيس في البلاد، معتبرًا أن غالبية النظم الجمهورية في العالم لا تعرف منصب نائب الرئيس.. مع أنه هو شخصيـــًا أتى إلى الحكم عبر هذا المدخل، الذي أغلقه منذ أن أصبح رئيســـًا قبل ربع قرن من ذلك التاريخ.

وفي الأردن، ملك شاب آخر، مشغول بأشياء كثيرة.. فالنقابات غاضبة، والبرلمان كان يغلي بعد إحالة ثلاثة من نوابه إلى المحاكمة، بسبب تعزيتهم في مقتل أبومصعب الزرقاوي.. والإخوان المسلمون في الأردن أعلنوا الولاء للوطن والملك، بعد قرص آذاهم، وضرب معقل جمعياهم الخيرية في الصميم.

وفوق هذا وذاك، فإن الملك عبد الله الثاني –بحكم والدته الإنجليزية، وتربيته– لا يجيد الحديث باللغة العربية، في حين ينطلق لسانه بالإنجليزية.. ربما لهذا وذاك فقد آثر السكوت.. ليس لأنه من ذهب؛ وإنما لأن كلماته لن تكون حتى من فضة.

لا أحد يرد في سوريا.. فالرئيس بشار الأسد يقتل يوميـــاً أبناء شعبه، ممن ثاروا على نظامه، وهو يتحدث عن "شبيحة" وإرهابيين يقتلون أفراد الجيش وأبناء الشعب معـــاً. لم نر هذه الآليات والأسلحة من قبل في سوريا، التي كلما تعرضت لهجوم إسرائيلي، أعلن نظامها أن سوريا "تحتفظ بحق الرد على هذا العدوان".. ثم يأوي النظام إلى فراشه، وهو يحلم بانتهاء كوابيس الاحتجاجات الشعبية، والعقوبات الدولية، ومحكمة لبنان الخاصة بالتحقيق في ملابسات اغتيال رئيس وزراء لبنان السابق رفيق الحريري.

وفي العراق.. ليلى مريضة.. وعبير مغتصبة.. والمالكي لم يقرأ قصيدة أمل دنقل "مقتل كليب" التي اشتهرت باسم "لا تصالح" فصافح يد وزير الدفاع الأميركي دونالد رامسفيلد، الملطخة بدماء عبير، ومعتقلي أبو غريب، وأهالي الرمادي وبعقوبة وبغداد، وغيرها من المدن العراقية. لا وقت إذاً للحديث عن هجوم إسرائيلي، فالمهم الآن هو إحباط ما يقول المالكي إنها خطة يضمرها مسلحون لاحتلال.. الكرخ.

لا تسألوا أين كان الرئيس اليمني – حينذاك– علي عبد الله صالح.. فالعقيد كان يمر حينذاك بأزمة نفسية، وحالة حزن لا يكفي لنسيانها مضغ قات العالم بأسره؛ لأن "الشعب" ضغط عليه، وأجبره في تلك الفترة على أن يتراجع عن قراره ليخوض

انتخابات الرئاسة لفترة جديدة.. وكله يهون من أجل إرادة "الشعب" اليمني.

والرئيس السوداني عمر البشير أقسم بالله -وربما بالطلاق- بأنه لن يسمح بتسليم أي سوداني إلى محاكمة دولية، وأنه لن يقبل بوجود قوات أممية في دارفور.. لكن الطوق أخذ يضيق حول عنقه في دارفور غربـــاً، وابتعاد نائبه حينذاك سلفا كير عنه في أكثر من موقف سياسي جنوبـــاً، ومفاوضات أسمرة شرقـــاً .. لا بأس إذًا بالتضحية بكبش فداء أو أكثر.. وإن كان من الأمر بد، فإن لديه زوجتين.. يمكنه أن يتخلى عن إحداهما - ولتكن أم الأولاد، فالجديدة أجمل- حتى يبر بوعده، ولا يحنث بقسمه.

ولكن.. أين كان الزعيم الليبي -حينذاك- العقيد معمر القذافي؟ يقول البعض إن القطة أكلت لسانه.. وبرر آخرون صمته بأنه حكمة إفريقية قديمة.. ودافع فريق ثالث عن الزعيم الليبي، قائلين إنه لو كان العرب استمعوا إلى نصيحته بإنشاء دولة "إسراطين"، التي تجمع بين إسرائيل والفلسطينيين.. لما جرى الذي.. جرى.

والرئيس الجزائري عبد العزيز بوتفليقة، بعد أن مَّن الله عليه بالشفاء في فرنسا.. ها هو يبحث في ضيافة بريطانيا عمن يوصفون بالمطلوبين بالعدالة الجزائرية.. فلا تشغلوا بالكم

بالحديث عن لبنان وغزة للرئيس "بو تاف".. فهو رجل مريض، ولا نريد أن نثقل عليه بمثل هذه الهموم.

الرئيس التونسي – حينذاك– زين العابدين بن علي كان مشغولًا بالقضاء على الأصوات المعارضة، خاصة في صفوف جمعية الصحفيين، ليستغرق هو وزوجته ليلى في الاستمتاع بالحياة في تونس الخضراء.. ولو كره المعارضون!

ولا داعي للتفكير في العاهل المغربي، الملك محمد السادس.. فالرجل منصرفٌ إلى إغلاق وتسوية ملفات عدة، من بينها ضحايا التعذيب في "سنوات الرصاص" في عهد والده الملك الراحل الحسن الثاني.. وفي المستقبل، سيتفرغ من يرث الملك بعده لإغلاق ملفات الجرائم المرتكبة في عهد محمد السادس.. وهكذا دواليك.

صديقتي: نحن أيضـَــا ليلنا صعب.

وربنا يستر.

فرانكشتاين لا يبيع الياسمين

في الحرب، لا يسعك أن تبحث عن دور.. فالأدوار تبحث عنك: إما بطلًا مقاومـــًا، يُنهي طقس جنازته باكرًا، كي يشارك أحبته الغناء.. أو خائنـــًا، لا ماء في بئر قلبه.. أو خائفـــًا، يبحث عن طوق النجاة من نهايات مؤلمة.

فكن من الصنف الأول... وقتها يكون الله خمس أصابع في كف كل مقاتل.

ولا تكن لص مقابر.. فتكتشف أن الجثة التي بعتها للتو كانت لأخيك.

ولا تكن ضحيةً بلا سببٍ.. فالموتى لا تأتيهم الأحلام في نومتهم القسرية.

في نفق الحرب المظلم تستطيع أن تترجل عن نجمتك، وأن تهدي من تحب رصاصة.. ليقاتل بها دفاعـــًا عن هذا الحب.

في زمن القتال.. تفقد الوردة اسمها، ويصادر الجاني رائحتها وضوء الشمس.. فحذار أن يصادر أيضـــًا صوتك، وعطر حبيبتك المفضل.

في أيام الحسم.. يتباكى البعض على موسم الصيف والسياحة.. ويسند البعض الآخر جسده المرهق إلى صفصافة

الصبر.. ويبقى نفرٌ قليل، يصنعون من ذكريات الطفولة والصبا قنبلةً يدويةً، يفجرونها في وجوه الغزاة.. وكلٌّ منهم ينشد:

"لأستسهلن الصعب أو أدرك المنى.. فما انقادت الآمال إلا لصابر"

في عهد الصراع، تضيع أشياء نبيلةٌ وجميلةٌ وسط الزحام، وتحت دوي قصف عشوائي، يسمونه العقاب الجماعي.. ولكن يبقى شخصٌ واحد على الأقل، يذيق الغاصبين بعضـــاً مما نكابد، ويلقنهم دروســاً في أبجدية الذعر، والنوم في الملاجيء، ودوي صافرات الإنذار، وكابوس الانفجارات والصواريخ.. وهو يردد:

"إن الجواهرَ في الترابِ جواهرٌ.. والأُسدَ في قفصِ الحديدِ أُسود"

في زمن الاختبار والاختيار.. تخلع عنك معطف السخرية، وترتدي ثوب الجد، ولسان حالك يقول:

"سلامٌ على الدنيا، سلامٌ على الورى.... إذا ارتفع العصفور، وانخفض النسر"

في زمن البحث عن رمزٍ – أي رمزٍ– للصمود.. تنبت لقلبك الطيب مخالب ..لكنك تبقى في صف المعتزلة.. إلى أن تولد

السنابل من أرحام الصامدين، الذين لا تخدعهم نعومة فراء الثعالب.

دراكولا غادر قبره الأول في رومانيا، واستصدر تأشيرة لفرانكشتاين.. لا ليبيع معه الياسمين، وإنما ليستقرا سوياً في مستوطنةٍ، تطل على جشع الغزاة، وظمأ الغاصبين لمزيد من دماء الأبرياء.. من مرجعيون وعيترون والخيام.. من بعلبك وصور وطرابلس.. من ضاحية بيروت الجنوبية والأشرفية.. لا فرق.. المهم أن يكون دماً بريئاً براءة كروم لبنان.

في رائعة غسان كنفاني "عائد إلى حيفا".. يفاجأ الأب الفلسطيني بأن طفله الرضيع "خلدون"، الذي كان قد نسيه في حيفا خلال عام ١٩٨٤، بسبب المجازر الصهيونية ضد سكانها، قد تحول إلى ضابط في الجيش الإسرائيلي.

وتدور الأيام دورتها.. تمر وتمكر بنا.. وها هي الصواريخ تزور حيفا مرة ثانية من دون استئذان، كي توقظ "خلدون" من سباته العميق، وتعيد إلى عروقه دماءه العربية.

في عالمٍ يطفو على القتلى كعادته.. لا تنتظر ماء النهر كي تغتسل وتتطهر من ذنوبك وخطايا الآخرين.. كُن أنت النهر.. الذي يؤدي واجب توزيع الأمل في الحرية.. كساعي بريد يعشق الرسائل التي يحملها في حقيبته اليدوية.

في كونٍ فسيح، كصدور أمهاتنا حين نحتاجهن.. لا تجعل أرضك ضيقة كمربع على أرضية منزلك.. وامنحها الرحابة التي تريد، ولو كان الثمن: دمك.

أرضك.. عرضك.

تلك هي جاذبيتك الأصيلة.. فاحفظ الدرس.. ولا تشتري لأبنائك منفىً اسمه الوطن المحاصر من الوريد إلى الوريد.

في حقبة الطرقات، التي لا تؤدي إلا إلى الموت.. عليك أن تختار.. بل عليك ألا تختار.

"فإما حياةٌ تسر الصديق.. وإما مماتٌ يغيظ العدا"

في محراب الصمت.. تكون الكتابة مقاومةً.. عصافير حنطية اللون.. تحط على الشجر اليابس، فتعيد إليه لونه الأخضر.. وتنام على بلور قلبك، فيورق حنانـــاً يسقي حدائق الآخرين.

في عصر الشياطين الخرس.. الساكتين عن الحق.. تصبح الكتابة صوت الفكر والبيان، ولسان الغائب، وخليفة اللسان.

فاكتب وتكلم.. ولا تسكت فتتألم.

وإياك إياك.. أن تمشي كأنك غيرك!

لم يكن هناك ضوءٌ يا رباب

الجثة مطمورة تحت التراب هنا.

وحدنا نحن العرب لم نكن هناك.

كانت الكفان كفا ملاك.

الذراعان تمتدان كأنهما تبتهلان إلى السماء.

والجسد الغض قارب في محيط ساكن.

كانت العينان مغلقتين، لأن النوم كان يشتهي أحلام الطفولة.

لكنهما الآن وردتان، سقطت عليهما قذيفة.

كم تلهو النار بلحوم الأبرياء في هذا الشرق الدامي.

لكن البعض ينسى أن شلال الدم يستسقي الدم.

هنا أطفال لن يكبروا يومــاً.

لم يبق من أحلامهم سوى أجساد ساكنة، ملفوفة في ملاءات، أو داخل أكياس.

رباب.. التي نفضت عن نفسها غبار الموت، وانتشلت ابنها الصغير من تحت الأنقاض.

وتتعثر في خطاها، قبل أن تبعد الأحجار عن جسد زوجها المُقعَد محمد.

وفي رحلة البحث الأخيرة، حاولت إنقاذ حياة ابنتها زينب..

لكن الموت كان يسابقها.

ومن أسرع من هذا الطائر المجنح، الذي يقبض الأرواح في خفة!

وفي جوف الظلام، عرفت أن ابنتها استسلمت لنهايتها.

لحظتها قبّلت يد زينب.. وودعتها إلى الأبد.

صمتت رباب الدامعة العينين للحظة.. فتكلم الصمت .. والكاميرا تدور:

انظر.. هذا دمي بين يديك.

هذه خصلة من شعر ابنتي. كنت أحتضنها.

في هذا الصباح الحزين.

تحت الأنقاض صرنا.

غطى الغبار المكان.. اختفت الصور.

تمتد اليد اليائسة إلى الخارج، قبل انهيار الملجأ.

لكن شيوخ اللذة، وأمراء النفط، وملوك الصمت، ورؤساء الخنوع يشيحون بأبصارهم بعيدًا.

لتبقى الضحية في انتظار الموت.

بعد أن انتظرت طويلًا يد العرب.

تفتح السيدة الصابرة حقيبة قلبها لمراسل الجزيرة عباس ناصر

تقول: لو كان هناك ضوءٌ لأنقذها.

لكن لم يكن هناك ضوء يا رباب.

فقد سرق الإسرائيليون نور النهار.

وباع "الأشقاء"كل شموع الكون..ليتساوى القاتل والمتواطئ.

انطفأ حتى بصيص الأمل.

مالت الساعات حزنـــًا، تحاول إفاقة الضحايا في قانا.

وحين لم تجد بينهم أحياء.. اطمأنت إلى أن رحلة الألم قد انتهت.

لم تعد توجد أسرار.

وعلى بشرة أطفال الملجأ ..مرتجفـــًا مر الهواء.

أقعت الظلمة في محاجر العيون.

لوهلةٍ تسمر عمال الإنقاذ في أماكنهم.

وبأذهانٍ شاردة، وعيونٍ زائغة بدأوا في انتشال الضحايا، والبحث عن ناجين.

تغوص أقدامهم في التراب الممتزج بالدماء، والجثث التي نامت في قلوبنا، بعد أن أدت دورها.

كل الحقائق تنتهي بسؤال.. إلا موت الضحية.

هذا الصمت المريب يحول الموت إلى خلود.

ويصبح هذا الموت الغادر مقبرة من جحيم، تبتلع جولة وزيرة الخارجية الأميركية كوندوليزا رايس.

لكن الكابوس يعود مع تهديدات رئيس الأركان الإسرائيلي دان حالوتس.. الذي قال إن القوات الإسرائيلية ستواصل القتال، إلى أن ينعم سكان شمال إسرائيل بالسكينة والهدوء.

أمن إسرائيل أولًا.. وليذهب أمثالنا من "الغوييم" إلى الجحيم.

تباشير الشرق الأوسط الجديد خرجت إذًا من قانا الجليل. شرق أوسط معمد بدماء عشرات الضحايا الذين حصدهم صواريخ وقنابل إسرائيلية المصدر أميركية المنشأ.

أطفال حملت أجسادهم الغضة سواعد المسعفين، بعدما كانوا يبحثون عن الأمان في أحضان أمهاتهم.

لكن في عالم الحقيقة، لا حرص الأمهات، ولا ملجأ أُعِدَ على عجلٍ يقي شر أسراب الطائرات الحربية.

إنه التاريخ يكرر نفسه... في المكان نفسه، وعلى أيدي جنود الكيان الغاصب نفسه.

ما أصعب الجراح التي تبقى طازجة!

هذه هي قانا.. مسرحٌ لمجزرة جديدة، بعد نحو عشر سنوات من المجزرة الأولى.

المشهد ذاته حصل في عام ١٩٩٦ عندما شنت إسرائيل، بقيادة العُمالي شمعون بيريز، عملية أسمتها "عناقيد الغضب" لكسر شوكة حزب الله.

ذاكرة الجراح تقول إنه في ١٨ أبريل من ذلك العام قصفت إسرائيل مجمع كتيبة فيجي، التابعة لقوة الأمم المتحدة في البلدة.. فقتلت ما يزيد على مائة مدني لبناني، كانوا قد اعتصموا بالمقر الدولي هرباً من القصف.

هذه المرة كسابقتها.. نحو ١٠٠ مدني، بمن فيهم سكان المبنى نفسه، يعتصمون ليلًا في ملجأ مبني من ثلاثة طوابق في قانا شرقي مدينة صور.

أتساءل: هل اسم قانا مشتق من الأحمر القاني.. لون دمهم وخجلنا؟!

قانا، التي شهدت قبل نحو ألفي عام معجزة للسيد المسيح عليه السلام، شهدت هذه المرة مجزرة إسرائيلية.. لكنها حوّلت الماء إلى دماء.

والجيش الذي لا يُقهر.. بعد أن ذاق طعم الهزيمة في مارون الراس وبنت جبيل.. أراد أن يفجر حقده قنابلا وقذائفا، تسقط من السماء الذبيحة كالمطر على الأبرياء.

كم نكبة تكفي كي تستيقظ الضمائر؟

تساؤل آخر، لا ينتظر الضحايا إجابة عنه.

ها هم يمشون فوق الغمام.

يمضون بعيدًا

تاركين لنا الأرض.. الهاوية.

أسئلة تلد أخرى

حان وقت الأسئلة.

والأسئلة قد تلد إجابات.. وربما تلد علامات استفهام كبيرة.

الآن، وقد دخل قرار وقف العمليات العسكرية، بين إسرائيل وحزب الله، حيز التنفيذ؛ يطفو على السطح سؤال يتردد صداه على الجبهتين: هل ما وحدته الحرب.. يمكن أن يفرقه السلام؟

فحزب الله يضع الآن عينــاً على التحرك العسكري الإسرائيلي، وعينــاً على الجبهة الداخلية.

وربما يكون الأمين العام لحزب الله، حسن نصر الله على حق، عندما يقول إن الحزب انتصر في حرب، سبق أن خسرت نظيراتها جيوش عربية.. لكن قرار وقف العمليات العسكرية يفتح الباب واسعــاً أمام قضية تشغل بال كثيرين داخل لبنان، وفي عدد من العواصم العربية والغربية: أما حان الوقت كي نفتح ملف نزع سلاح حزب الله، بهدف بسط سيادة الدولة اللبنانية؟.. غير أن حزب الله يرد بتساؤل آخر: من سيدافع عن لبنان إذا تعرض مجددا لهجمات إسرائيلية؟.. ونجد أيضــاً من يتبنى قول نصر الله: إن الجيش اللبناني والقوات الدولية غير قادرين على حماية لبنان.

جلسة الحكومة اللبنانية المؤجلة ليست سوى عنوان لخلافات تختبئ تحت رماد الحراك السياسي اللبناني. خلافات عنوانها سلاح حزب الله... وما كان حاضرًا في جلسات الحوار الوطني باستمرار، سيعود بقوة التحالفات السابقة والخصومات المستديمة.

على الجانب الآخر، فإن أولمرت فشل في امتحان كسب الشرعية، وخسر رهانه على الخروج من تحت عباءة سلفه أرئيل شارون.. والشاهد أن أولمرت واجه في المرحلة التالية معركة صارع فيها من أجل بقائه على الساحة السياسية.

وربما يذكر البعض كيف بدأ أولمرت الحرب على لبنان بتأييد شعبي مطلق تقريبـــًا، أظهرته استطلاعات الرأي، قبل أن يوافق على قرار وقف العمليات العسكرية، وخلفه مجتمع إسرائيلي منهك وجريح يشعر أنه بلا قيادة.

بل إن بعض حلفاء أولمرت يقرون بأن إسرائيل أبعد ما تكون عن النصر، الذي تحدث عنه رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق في خطابه أمام الكنيست، يوم الاثنين الموافق ١٤ أغسطس ٢٠٠٦. فلا حزب الله اختفى من على الساحة، ولا قرار مجلس الأمن الدولي رقم ألف وسبعمئة وواحد حدد جدولا زمنيا لنزع سلاح الحزب.. ولا إسرائيل تمكنت من تحرير جندييها اللذين أسرهما حزب الله في ١٢ يوليو ٢٠٠٦ – إلا عبر التفاوض

والوساطة الدولية لاحقـــًا- ولا الجيش الإسرائيلي نجح في خوض حرب غير نظامية أمام مقاتلي حزب الله.. أما أمطار الصواريخ التي سقطت على شمال إسرائيل، فحدث ولا حرج!

وبعد أن رفعت إسرائيل في البداية شعار الإفراج الفوري، وغير المشروط عن الجنديين الأسيرين لدى حزب الله، قررت تحديد أهداف أشد وضوحـــًا لحملتها العسكرية على لبنان، فلم تعد تتحدث عن أسرى، وإنما قواعد لعبة جديدة، تتناغم مع مصلحة أميركية، باتجاه إقامة شرق أوسط جديد. ولتحقيق ذلك، أفرطت في استخدام القوة في هجومها على لبنان، الذي طال كل شيء، حتى منشآت تابعة للدولة اللبنانية.

لكن هذا التصعيد لم يقلص من قدرات حزب الله، بل ازدادت هجماته الصاروخية، وطالت مواقع ومستوطنات لم تكن تستهدفها من قبل. استمرار الحرب، وصمود حزب الله، والخسائر التي ألحقها بالإسرائيليين كلها دفعت الحكومة الإسرائيلية إلى بلورة أهداف أكثر تواضعـــًا: إجبار الحكومة اللبنانية على تنفيذ قرار مجلس الأمن ١٥٥٩.. وإبعاد حزب الله إلى ما وراء نهر الليطاني.. وإنهاء خطر الصواريخ.

ثم تمخض الجبل، فولد قرارًا دوليـــًا، اعتبره أولمرت نصرًا دبلوماسيـــًا.

والرأي عندي أن إسرائيل وجدت نفسها فجأة تحت قيادة ثلاثي كوميدي: رئيس وزراء حديث العهد، لا يملك الحنكة السياسية اللازمة، هو إيهود أولمرت، الذي يترنح الآن تحت ضربات خصومه ومنتقديه.. ووزير دفاع جديد، هو عمير بيريتس، لا ناقة له ولا جمل في عالم المؤسسة العسكرية.. ورئيس أركان جديد أيضـــاً، هو دان حالوتس، فشل في الجانب العسكري والاستخباري على حد سواء.

ثلاثي مضحك، تسبب في مقتل ما لا يقل عن ١٥٠ إسرائيليـــاً، حسب التقديرات الرسمية الإسرائيلية.. وبعيدا عن الصراع بين الفلسطينيين والإسرائيليين، فإن عدد القتلى من المدنيين الإسرائيليين خلال هذه الحرب، فاق أعداد القتلى في أي حرب خاضتها إسرائيل منذ عام ١٩٤٨.

لبنان إذاً صداع دائم في رأس إسرائيل وقادها.. فقد ساهمت الخيبة التي شعر بها رئيس الوزراء سابقـــاً مناحيم بيغن من غزو لبنان عام ١٩٨٢ في اتخاذه قرار التنحي.. إلى أن مات مكتئبـــاً ومترويـــاً.. كما أجبر وزير دفاعه شارون على الاستقالة.

وكانت محاولة وقف هجمات صاروخية، شنها حزب الله بعملية "عناقيد الغضب" العسكرية، من العوامل التي أدت إلى هزيمة شمعون بيريز في انتخابات عام ١٩٩٦. وقوبل قرار رئيس الوزراء سابقـــاً إيهود باراك بالانسحاب من لبنان في صيف عام

٢٠٠٠ بعد احتلال دام ٢٢ عامـــاً بالانتقادات، ليخسر باراك في انتخابات العام ٢٠٠١.

وعقب حرب صيف ٢٠٠٦، بدا كثيرون مقتنعين بانتهاء شهر العسل القصير بين أولمرت ورئاسة الحكومة الإسرائيلية.

إن حزب كاديما، الذي أسسه شارون قبل غيبوبته، أصبح في مهب الريح بعد حرب ٢٠٠٦ في لبنان، لتشهد الانتخابات العامة التالية في إسرائيل التوقيع على شهادة وفاة هذا الحزب الكرتوني.

ولكن ماذا عن مشروع الشرق الأوسط الجديد، الذي روَّجت له الإدارة الأميركية، إلى الحد الذي تبجحت فيه وزيرة خارجيتها السابقة كوندوليزا رايس بالقول إن العمليات العسكرية التي تعرض لها لبنان ليست سوى مخاض لهذا المشروع الأميركي- الإسرائيلي؟

لقد عاد المشروع المشبوه إلى الأدراج حتى إشعار آخر... وبعد أن سكتت عنه أطراف عربية، ترفع شعار "التواطؤ هو الحل" و تردد مقولة" البتاع ده".. نجد أن الدعم السياسي، الذي حظيت به المواقف الأميركية من بعض الدول العربية، تحول تراجعا تحت ضغط الغليان الشعبي العربي، الذي وجد في صمود المقاومة اللبنانية ميدانيـــاً، في وجه أعتى آلة عسكرية إقليمية،

بريق أمل في إمكانية نجاح الممانعة في وجه مشروعات سلام كتلك التي تحدثت عنها رايس.

شرق أوسط جديد؟

ربما يكون فعلًا شرقـًا أوسط جديدًا.. يختفي فيه ديناصورات الحكم، ودعاة الخنوع والخضوع، وأنظمة شراء وتخزين السلاح من دون أن يعني ذلك استخدامها في الاتجاه الصحيح والوقت المناسب.

أسئلة تلد أخرى.

وقد نعود للبحث عن إجابات لها.

بيوتنا.. وبيت حانون

بعد "أمطار الصيف"، جاءت" غيوم الخريف".

وها هم الفلسطينيون يحملون من بيوتهم، التي تحمل رائحة الموت، قتلاهم إلى مقابر جديدة، امتلأت بضحايا الهجوم الإسرائيلي.

بيت حانون ذاقت أكثر من غيرها ويلات الهجمات.. وفي ٨ نوفمبر ٢٠٠٦ قتلت الآلة العسكرية الإسرائيلية نحو ٢٠ فلسطينيـــاً، معظمهم من النساء والأطفال، وأصابت ٤٠ آخرين بجروح، في تلك البلدة الواقعة شمال قطاع غزة.

منازل كاملة دمرت على رؤوس أصحابها وهم نيام، لتختلط دماء وأشلاء القتلى بالحجارة وأثاث المنازل، بعد أن دس الجيش الإسرائيلي قذائفه مع عسعسة الليل في الظلام.

هل يذكركم هذا بمجازر مماثلة؟

"قانا الثانية" مثلا.. أو ربما جنين.. أو حتى المجازر الأخرى، التي تثبت أن ما بين الفلسطيني والدم رحلة طويلة، معمدة منذ أكثر من نصف قرن من الزمان: دير ياسين وقبية ونحالين، مرورًا بكفر قاسم وصبرا وشاتيلا والحرم الإبراهيمي الشريف ورفح.

لكن ما لنا نتكلم عن المجازر ونحن نعلم أن المجازر بحقنا ملح يذوب في بحر التاريخ!

"خطأ تقني"

هكذا برر رئيس الوزراء الإسرائيلي - حينذاك- إيهود أولمرت هذا القصف المدفعي، في حين قال بيان عسكري للجيش الإسرائيلي إن إحدى بطاريات المدفعية ارتكبت خطأ تقنيـــاً في نظام التحكم بإطلاق القذائف

خطأ بشري.

هكذا كان لسان حال الحكام العرب.

إذ يبدو أن كريات الدم الحمراء لم تعد تدور في شرايينهم؟.. بل إن البعض رصد ظاهرة طبية نادرة في هؤلاء القادة التاريخيين: إنهم بلا دم أصلا.

لا أحد يدري لماذا سكت العرب على ما يجري في غزة، التي تعد واحدة من أكثر المناطق كثافة بالسكان في العالم، ويسكنها نحو ٢,٥ مليون فلسطيني! هل لأن المجازر الإسرائيلية تزامنت مع انشغال الرئيس المصري السابق حسني مبارك بجولته في روسيا وجمهوريات آسيا الوسطى والصين.. وانهماك الرئيس السوري بشار الأسد في حساباته مع القوى السياسية اللبنانية.. وتكريس العاهل المغربي الملك محمد السادس جهوده وجنوده لمحاربة ما

يوصف بالإرهاب.. واستئساد الرئيس التونسي حينذاك زين العابدين بن علي في حظر الحجاب؟

ربما.. وربما أيضـــاً أن كثيرين من أبناء هذه الأمة يتمتمون وهم يشاهدون صور تلك المجازر الوحشية ويطالعون أخبارها: الحمد لله أنها في بيت حانون.. وليست في بيوتنا!

مع أن بيت حانون قد تكون الطريق إلى بيوتنا.

لكن.. لا عرب هنا الآن ليمسحوا الدمع أو يحموا التراب.

عشرات القتلى، ومئات الجرحى من الفلسطينيين سقطوا خلال أقل من أسبوع.. لكن لا أحد يستطيع أن يراهن على أن آلة التدمير والقتل الإسرائيلية نجحت هذه المرة في كسر إرادة أهل غزة. كان رئيس الوزراء الإسرائيلي إسحق رابين يقول: "أتمنى لو تغرق غزة في البحر". لكنه قُتلَ برصاص اليميني الإسرائيلي إيغال عمير في ٤ نوفمبر ١٩٩٥.. وبقيت المدينة التي أطلق عليها الفراعنة أيام تحتمس الثالث "غزاتوه" وارتبط اسمها بـــ "الكنز" الذي قيل إن قمبيز قد دفنه أيام الفرس.

قادة إسرائيل، الذين طمعوا من فلسطين بالأرض دون الناس، اعترفوا دائمـــاً بأنهم عندما يتعلق الأمر بغز،ة فإنهم لا يريدون الأرض ولا الناس. ومع ذلك فإن إسرائيل تمارس ضد أهالي غزة سياسة القصف الوحشي بالصواريخ والقنابل والمذابح والدمار للبنية التحتية المدنية والإغلاق والتجويع.

المشكلة أن إسرائيل لا تفهم دروس التاريخ. والتاريخ يقول إن "غزة" لعبت على مر العصور وظيفة الميدان وساحة القتال لمعظم الإمبراطوريات في العالم القديم والحديثة.. الفرعونية والآشورية والفارسية واليونانية والرومانية ثم الصليبية.. وفي الحرب العالمية الأولى. ومع ذلك بقي اسمها خالدًا دون تغيير أو تبديل.. وأطلق عليه العرب "غزة هاشم" حيث دفن بها جد الرسول محمد بن عبد الله- صلى الله عليه وسلم- أثناء إحدى رحلاته قبل الإسلام في نهاية القرن الخامس وبداية القرن السادس الميلادي تقريبـــًا. فلا غرابة والحالة هذه أن يطلق عليها خليل الظاهري لقب "دهليز الملك"، وأن يصفها نابليون بونابرت بأنها بوابة آسيا ومدخل إفريقيا لتؤكد جميعها حساسية موقعها وأهميته.

أما دروس الماضي القريب، فتقول إن الاجتياح الإسرائيلي السابق لقطاع غزة ترك وراءه عشرات القتلى والجرحى من الفلسطينيين؛ لكنه لم يسفر عن تحقيق إسرائيل هدفها الرئيسي المعلن: العثور على الجندي الإسرائيلي غلعاد شاليط، الذي وقع في أسر ثلاثة فصائل فلسطينية، في عملية عسكرية نوعية، أطلقت عليها الجهات المنفذة اسم عملية "الوهم المتبدد" في ٢٥ يونيو ٢٠٠٦، قبل أن يُفرَج عنه بعد ذلك في ١٨ أكتوبر ٢٠١١، في إطار صفقة لتبادل الأسرى.

وها هي إسرائيل تعاود الكرة، وتحشد قواها من تعزيزات عسكرية من الدبابات وناقلات الجند والجرافات، تحت غطاء جوي من الطيران الحربي الإسرائيلي، خاصة طائرات الاستطلاع التي تعمل من دون طيار.

ثلاثة أهداف معلنة رفعتها إسرائيل هذه المرة: وقف إطلاق الصواريخ من قطاع غزة على بلدات إسرائيلية.. ومنع تهريب الأسلحة إلى الفلسطينيين عبر الحدود مع مصر.. وتعقب أثر الجندي الإسرائيلي الأسير.

على أن رصد حجم ومسار العملية العسكرية الإسرائيلية الموسعة في قطاع غزة يشير إلى أنها تدخل ضمن مخطط أكبر لإعادة احتلال قطاع غزة. وبعد الدمار الواسع، الذي ألحقته إسرائيل بأراضي بيت حانون.. فإن مدينة رفح تبدو مستهدفة لفصلها عن باقي القطاع. بل إن إسرائيل تسعى حثيثاً لإعادة احتلال معبر رفح، ومحور صلاح الدين، الفاصل بين الأراضي الفلسطينية والمصرية. ولذا لم يكن مستغربا أن تكون "غيوم الخريف" من أكبر العمليات والتوغلات لقوات الاحتلال منذ أسر الجندي شاليط.

ولا تغيب عن الأذهان مساعي حكومة أولمرت إلى مواصلة الضغط على الحكومة الفلسطينية، التي تقودها حركة "حماس"، بهدف إسقاط هذه الحكومة. وبعد الحصار المالي والاقتصادي، ها

هي إسرائيل تحاول إظهار تلك الحكومة في موقف العاجز عن حماية الشعب الفلسطيني. كما جاءت تلك الهجمات الإسرائيلية وسط جهود مكثفة، لاحتواء الأزمة بين حركتي "حماس" و"فتح "وتشكيل حكومة وحدة وطنية فلسطينية، بعد أن عجزت الحكومة التي تقودها "حماس" - بسبب عوامل متداخلة ومجتمعة- عن تقديم حلول عملية لمشكلات الشعب الفلسطيني المعيشية، والتي بلغت درجة الاختناق.

الهدف الأخطر من وراء هذا الهجوم الإسرائيلي هو أن يصل الفلسطيني إلى محطات اليأس، بحيث يصبح الحديث عن ثوابت وطنية، وحقوق راسخة للشعب الفلسطيني تتمثل في العودة والحرية وإقامة دولة فلسطينية كاملة السيادة عاصمتها القدس نوعـــاً من الترف في ظل الهجمات اليومية.. أو أن يكون حديثـــاً يلقي بصاحبه إلى التهلكة، ويعرضه للاستهداف والقتل المعنوي والمادي.

البعض - ومنهم رئيس الحكومة الفلسطينية المقالة إسماعيل هنية - رأى أن هذه الهجمات الإسرائيلية هي أولى ثمار ضم أفيغدور ليبرمان زعيم حزب" إسرائيل بيتنا" اليميني المتطرف إلى حكومة أولمرت.

وليبرمان هو رجل العنف.. إذ إنه يطرح دائمـــاً لغة القوة لحل مشكلات إسرائيل مع "جيرانها"، وهو الذي كان قد أثار الرأي العام والرسمي المصري قبل سنوات، عندما دعا إلى قصف السد العالي، إثر خلاف سياسي مع مصر.

والقوة طبعـــاً هي اللغة التي تعرفها إسرائيل، خاصةً في ظل وجود شخصيات داخل حكومتها من عينة ليبرمان، الذي دعا خلال اجتماع حكومي إلى اعتماد الجيش الإسرائيلي في قطاع غزة الوسائل عينها التي يعتمدها الجيش الروسي في الشيشان.

الممارسات الإسرائيلية الجديدة تزيد من معاناة الفلسطينيين، حتى أن مدير وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين "الأونروا" في غزة، جون جينغ، لخص في مؤتمر صحفي الوضع في بيت حانون بالقول إن "الموت والدمار واليأس هي الكلمات التي يمكن استخدامها لوصف الوضع.. حاليـــاً يعيش ٤٠ ألف شخص في بيت حانون معاناة كبيرة جدًا.

لكن الشيء الأكيد أنه بالرغم من الهجمات الإسرائيلية، فإن أهالي غزة باقون، حتى بعد سقوط أولمرت وليبرمان وأمثالهما. هم لا يملكون سوى الصمود، ويرددون بإصرار أن فلسطين باقية، ولن تمحوها الاعتداءات.. قائلين إن على من يرفض هذا الرأي أن يتذكر جيدًا الشتيمة المحببة على قلب الرئيس الفلسطيني الراحل ياسر عرفات: "من لا يعجبه فليشرب من بحر غزة"!

على أرجوحة الطائفية

من يدفن من: صدام حسين أم قتلته؟

ربما تكون السابقة الأولى في التاريخ: قبر طاغية يقود المعارضة.

طاغية يتطهر الآن من آثامه.. لأن شعبه يكتشف تدريجيا أن القاتل ليس بأي حال أفضل من القتيل.

في المشهد المرتبك، تختلط التفاصيل، وتتداخل الأسماء والوقائع، ويوضع التاريخ في الثلاجة.

جثة صدام تتسلل الآن من قبرها في العوجة، وتنزل في مدن وبلدات وأسواق الرمادي وبعقوبة وتكريت والفلوجة والموصل.. لتحرض أهلها على الثأر والمقاومة.

جثة الرجل، الذي حكم العراق بقبضة من حديد، منذ عام ١٩٧٩، وحتى سقوط نظامه في ٩ أبريل ٢٠٠٣.. وألقى بالعراقيين في آتون حروب ومعارك وغزوات ونزوات طائشة ومميتة.. تنادي الآن الناس، وتقود الهتاف "يحيا العراق"، في وقت كان قتلته يهتفون باسم رموز ذات طابع مذهبي.

اغتسل صدام من كل جرائمه في غرف حكومة نوري المالكي، ليخرج إلى العراقيين زعيما وطنيا، مثلما أظهرته

جلسات محاكمته.. رجلا رابط الجأش، يتحدث في ثقة، ويتحدى في قوة، ليفحم القضاة، ويربك الجلادين.

هكذا لم يكن القتلة مجرمين فقط.. وإنما أيضاً أغبياء.

فالقتلة، الذين جاؤوا على ظهر دبابات الاحتلال، وأضافوا ملايين الدولارات إلى أرصدهم في البنوك، بعد أن قبضوا ثمن التواطؤ مع المحتل، والرشى على يد المقاولين الجدد، رأوا أن تصفية صدام أهم بكثير من تصفية الوجود الأجنبي في العراق، وإعادة النظر في قرار حل الجيش، وقانون اجتثاث البعث. وتوهموا أن غياب الرجل سيخمد نار الغضب في صدور أبناء وطن يقف على حافة التقسيم، ويغلي تحت مرجل الحرب الطائفية، وينزف جسده يومياً المزيد من الدماء. وظنوا أن دفن الدكتاتور يحظى بأولوية، تسبق التخلص من الفئوية والولاء المزدوج.

ونسي هؤلاء أن إعدام صدام في هذا التوقيت، وعلى هذا النحو، خطأ سياسي وتاريخي، لن يساعد العراق على طي صفحة الماضي.

نعم، صدام ارتكب جرائم بشعة، وانتهاكات عدة بحق شعبه ووطنه وجيرانه؛ لكن الإعدام في هذا التوقيت الخاطئ، وعلى يد مجموعة من القتلة، ليس أقل بشاعة؛ لأن الأمر يتعلق الآن بمصير بلد عربي، أجلسوه بالقوة على أرجوحة الطائفية.

هذا التشفي، الذي أطل من عيون الملثمين، الذين نفذوا حكم الإعدام في الرئيس العراقي السابق، يتحول الآن بفعل فاعل إلى لعنة.. هذه الروح الطائفية المقيتة، التي تلذذت بتنفيذ حكم الإعدام في صدام ،بعثت برسائل واضحة إلى الجميع، مفادها أن الحرب الأهلية على الأبواب في العراق.

هل لاحظتم المفارقة الدامية: صدام مكشوف الوجه.. وقاتلوه يخفون ملامحهم وراء الأقنعة السوداء؟

لم يجد القتلة أسوأ من هذا التوقيت لينفذوا الحكم الذي أرادوه.. وإلا فما معنى أن يأتي تنفيذ الحكم في الشهور الحرم، وفي أول أيام عيد الأضحى المبارك، الذي تتجسد فيه وحدة المسلمين ويسود التقارب بينهم.. وملايين الحجاج تبحث عما يوحدها، لا عما يذكرها بما يفرقها.

لم يحترم زعماء الميليشيات، التي تقود فرق الموت في العراق، هذه المناسبة العظيمة وهيبتها ومكانتها في نفوس وضمائر المسلمين.. ولم يراع هؤلاء أن الإعدام يحدث في يوم يرمز إلى التسامح.

ألقت حكومة المالكي بعود ثقاب في مترل من القش، وأدارت ظهرها.. نفخت في نار المذهبية، لتذكي روح الثأر والانتقام، قبل أن تبتسم لشياطين تصفق ابتهاجـــاً بوليمة الدمار المنتظر، كأنه رائحة شواء.

نسي المالكي وإبراهيم الجعفري وموفق الربيعي وأحمد الجلبي ومن لف لفهم أن إعدام صدام كأنه خروف العيد ليس سوى عمل أخرق، نفذه عدد من أصحاب الأقنعة، في وقت كان العراقيون يلملمون فيه أوراق مؤتمر المصالحة الوطنية، الذي عقد في بغداد قبل الإعدام بأيامٍ قلائل.

أهي روحُ العدل، أم خَبَثُ الطائفية المنتنة؟

إن العدل ليس انتقامــاً شعبويــاً.. والدولة ليست تنظيمات مغلقة، تعلن ولاءها للخارج أكثر من الداخل.. والنظام ليس أفرادا يرتمون في أحضان الغير، ويقبلون أيادي زعماء الطوائف.

في العدل قصاص.. لكن الملثمين، الذين يقودون العراق الآن، أغفلوا حقيقة مهمة، وهي أن الدولة تقتص ولا تنتقم.

"لا قُرت أعين الجبناء".

هذه المرة كان صدام على حق.

الجبناء، الذين صنعوا محاكمات هزلية ومعيبة، تخضع للرقابة والمونتاج .. وعمدوا إلى تغيير القضاة، كلما حاول أحدهم أن يظهر قدرًا من العدل والحكمة، في بلد كان للاحتلال فيه اليد العليا، ولأعمال العنف الطائفي والمذهبي والخلاف السياسي الصوت الأعلى.

الجبناء، الذين ارتدوا مسوح الديمقراطية، هم أنفسهم الذين يتنفسون هواء مسموما، اسمه تراجع الوطن إلى الدرجة الثانية، ليحل محله الهوس والتعصب الكريه.

قد يجادل البعض بأن صدام كان على الأقل "عادلا" في جرائمه.. قتل وانتهك وعذب جميع خصومه من دون تفرقة في الملة والمذهب، بينما اختصر الطائفيون الجدد جرائم الرئيس العراقي السابق فيما حدث للشيعة في بلدة الدجيل، ولم ينتظروا حتى تنتهي محاكمته في قضية الأنفال بحق الأكراد، لتكتمل فصول المسرحية.

هكذا يصنع الأغبياء أكذوبة البطل والرمز الزائف، من جثة دكتاتور جر -بحروبه وممارساته- المنطقة العربية إلى ما هي عليه الآن من تشرذم وانقسام.

هكذا تتأرجح جثة صدام في الهواء قليلا.. وتتأرجح جثة العراق في الهواء طويلًا.

قد نتحمل جثة صدام، الذي قتل وعذب وانتهك الحقوق.. لكن ماذا عن جثة العراق؟

اللقطة الأخيرة لصدام الآن ليست سوى جزء من الصورة.. الصورة الكاملة ترقد فيها جثة العراق، مسجاة كمقبرة جماعية، على خارطة بحجم الوطن العربي.

أما الجثث الأخرى على امتداد العالم العربي، التي ابتلعت لسانها ومصمصت شفاهها، وقالت لمن حولها "يستاهل".. فهي ترقد في قبور على هيئة قصور رئاسية من زمان.

والجثث، التي تنام الآن على وسادةٍ من نار، لا بد أن تنجب بالضرورة حرائق العنف والخراب.

ولهؤلاء نقول: خرابٌ.. عليكم.

دمنا يسيل من شاشاتهم

لم يعد الأحمر القاني هو دمنا الرخيص.. بل أخبار أرواحهم الغالية.

فقد أصبح اللون الأحمر فجأة سيد الشاشات، من محطة " بي بي سي" إلى فوكس، مرورًا بمحطة "سي إن إن".. لتزف تلك القنوات الإخبارية خبر تحرير ثلاثة رهائن غربيين، كانوا مختطفين في العراق منذ نوفمبر ٢٠٠٦.

والرهينة الأبيض خير وأحب عند هذا الإعلام –طبعـًا– ممن سواه.

ولا بأس من الاهتمام بهذا الخبر، لو كانت تلك المحطات التلفزيونية تولي خبر مقتل أكثر من ٤٠ عراقيًا – من مدنيين ورجال شرطة– وإصابة عشرات آخرين بجروح، في سلسلة هجمات شهدها العراق في ذلك اليوم.. لكن أحدًا لم يفعل.. ربما لأن الدم العربي أصبح بلا ثمن، بعد أن هان على كثير من أهله.. أو لأن الإعلام الغربي مشغول بقضايا مصيرية، من عينة تحرير الرهائن الثلاثة - وهم البريطاني نورمان كيمبر، والكنديان جيمس لوني وهارميت سينغ سودن– الذين يعملون في منظمة خيرية، تُعرف باسم فِرق صانعي السلام المسيحية.

لم يقف الإعلام، الأحادي الجانب، طويلًا عند خبر مجزرة بلدة "حديثة" العراقية، التي ارتكبها قبل أيام قلائل جنود مشاة البحرية الأميركية.. ولم يرصد المفارقة بين تصريحات القوات

الأميركية في البداية بأن "القتلى" – وبينهم ثلاثة أطفال وسبع نساء– سقطوا بانفجار عبوة ناسفة، ثم تراجعها في اليوم التالي، وإعلانها بأنها تحقّق في الحادث، بعد أن قامت مجموعة أميركية بتزويد مجلة "تايم" بصور ضحايا المجزرة، وشهادات موثّقة عن الجناة من المارينز.

Kember Freed

عنوان تصدر باقي عناوين النشرات الرئيسة في إعلام فقد حياده، وآمن بأن حياة كيمبر ورفاقه أهم بكثير من حياة وأمن وسلامة عراقيين، تحصدهم الهجمات والتفجيرات، التي أصبحت خبز العراق اليومي، وينال من آدميتهم أصحاب الأحذية الثقيلة.

Kember: It's great to be free

إعلام يحمي من يحصون عدد قتلاهم في العراق – ويخفون في الوقت نفسه رقم جرحاهم، الذي تجاوز ١٧ ألف شخص– ويتجاهلون –بدم بارد– عدد ضحايا العنف والقتال، منذ بدء الحرب على العراق.

محطات إخبارية، مثل فوكس، التي كانت تقول مع بدء الحرب على العراق "حربنا".. لكنها تحرص اليوم على أن تهز رأسها بشدة، نافية أي وجه للمقارنة بين الحرب على العراق، والوجه القديم لحرب فيتنام.

على أنه –ووفقـــاً لرجل مثل جون مولر الخبير السياسي في جامعة أوهايو– فإنه بالمقارنة مع حرب فيتنام، فإن الحرب على العراق سرعان ما فقدت الدعم الشعبي لها في الولايات المتحدة.

ويوضح الخبير أنه "مع سقوط ألفي قتيل (من العسكريين الأميركيين) في هذه الحرب، فإن دعم الرأي العام هبط إلى المستوى الذي بلغه عند سقوط عشرين ألف قتيل (أميركي) في فيتنام"، عند شن الهجوم في عيد "تيت" - أو رأس السنة الفيتنامية عام ١٩٦٨- والذي شكل منعطفـــاً نفسيـــاً في تلك الحرب.

وإن كان الأميركيون لا يتظاهرون في الشارع، فلأن النزاع لا يؤثر على حياقم اليومية، بالقدر الذي كانت عليه حرب فيتنام، حيث إن الخدمة العسكرية لم تعد إلزامية.

غير أن الحرب هي الحرب... وكلما سقط قتيل نهض سؤال.

ومن تلك الأسئلة الأساسية التي أثارها الحرب على العراق ما طرحه المخرج الأميركي **Eugene Jarecki** في فيلمه الوثائقي المهم **Why Do We Fight**

والذي يناقش ما إذا كانت السياسة الخارجية الأميركية مسكونة بفكرة التفوق العسكري.. وما إذا كان الجيش قد تحول إلى ضرورة لا غنى عنها في الحياة الأميركية.

Kember will return home tomorrow

ولكن، ماذا عن عودة وطن يرزح تحت الاحتلال إلى أهله؟

وماذا عن شعب سقطت من قاموسه كلمة غدا؟

أسئلة معلقة في رقابنا جميعا، قبل أن نطالب أي إعلام متحيز بالإجابة عنها.

دمنا

دمنا

دمنا

ودمتم.

ضحايا الست ريمة

ها هي ريمة تواصل عادها الذميمة.

فقد قالت منظمة "هيومن رايتس فيرست" في برنامج بثه تلفزيون هيئة الإذاعة البريطانية في ٢١ فبراير ٢٠٠٦ إن حوالي ١٠٠ سجين توفوا في المعتقلات الأميركية في العراق وأفغانستان، منذ أغسطس ٢٠٠٢ وصولًا إلى عام ٢٠٠٦.

وأوضحت هذه المجموعة، التي تضم محامين، أن ٩٨ معتقلًا توفوا، بينهم ٣٤ على الأقل في أعمال يعتقد أنها قتل متعمد أو غير متعمد.

وكشف الملف أيضـًا عن وفاة ١١ معتقلًا لأسباب مشبوهة، وأن ما بين ٨ و١٢ سجينـًا ماتوا تحت التعذيب.

وتحدثت المنظمة أيضا عن سجين، ألقي به من جسر فوق نهر الفرات في العراق، وآخر توفي مختنقـًا في كيس للنوم.

ويتعين القول إن الوثائق تستند إلى تقارير عن تحقيقات أجراها الجيش الأميركي، وحصلت عليها المنظمة المذكورة من الإدارة الأميركية، أو بفضل القانون حول حرية الاستعلام في الولايات المتحدة.

جاء هذا التقرير، بعد أسبوع على بث صور جديدة لتجاوزت وانتهاكات بحق معتقلين في معتقل أبو غريب في العراق، تحت إدارة القوات الأميركية.

لم يجد السفير الأميركي في العراق – حينذاك– زلماي خليل زاد، سوى أن يقول لهيئة الإذاعة البريطانية إنه "إذا تأكدت صحة هذه التقارير، فإنها ستكون بالتأكيد تجاوزات رهيبة، وغير مشروعة، سيتم التحقيق حول أولئك المسؤولين عنها ومعاقبتهم".

يا سلام!

لكن ديفيد ريفكين، المستشار القانوني السابق للبيت الأبيض، اعتبر أن هذه الأرقام يجب أن ينظر إليها بشكل نسبي، موضحاً أن "تعذيب عشرة أشخاص حتى الموت، من أصل مئة ألف معتقل في العراق وأفغانستان، يشكل معدلا أفضل مما حصل في الحربين العالميتين، وفي معظم أنظمة الجزاء المدنية".

وبالحرف الواحد، قال ريفكين: "إنها ليست فضيحة. تحدث أمور سيئة خلال الاعتقال، والكثير منهم يتوفون لأسباب لا علاقة لها بذلك".

حربان أميركيتان تشنان جنباً إلى جنب: واحدة ضد الإرهاب.. وأخرى لكسب العقول والقلوب.

وإذا كان الأميركيون أنفسهم يجدون مشقة في الاطمئنان إلى ما يمكن تسميته انتصارًا في الحرب على الإرهاب، فإن اليقين بالضرر، الذي أصاب السمعة الأميركية في حرب القلوب والعقول (تذكروا جولة كارين هيوز، مساعدة وزيرة الخارجية الأميركية للدبلوماسية العامة سابقاً، ولقاءاتها في المنطقة لتجميل وجه واشنطن) أشد رسوخاً لدى كثيرين، آذاهم ما

لحق بأمة، تعد مأثرها الكبرى انتصارها لقيم الحرية وحقوق الإنسان.

وصور فضائح معتقلي غوانتانامو وأبوغريب ألحقت المزيد من الضرر، حسب منظمة "هيومن رايتس فيرست".

ولنتذكر جميعـــاً أن الإدارة الأميركية دافعت وتدافع وستدافع عن معتقل غوانتانامو، بالرغم من الانتقادات القوية، وبالرغم من صدور تقرير للأمم المتحدة يتهم الولايات المتحدة بإساءة معاملة معتقلي غوانتانامو، ويدعو إلى إغلاقه.

من سجون أفغانستان، حيث أولى جبهات الحرب الأميركية على ما يوصف بالإرهاب.. إلى العراق، حيث نشر الحرية والديمقراطية وحيث معتقل أبوغريب.. ثمة قتل وقع بحسب التقرير.. وفي غوانتانامو، حيث الاعتقال بعيدًا عن فضائل القانون الأميركي، ثمة تعذيب تعرض له معتقلون.

ترى.. كم قلب وعقل خسرت أو ربحت أميركا في معركة استمالة الأفئدة وكسب الوجدان؟

رفقًا بالمغتصبين

ليس على المغتصب حرج!

ومن الآن فصاعدًا، لا بد أن نتفهم ظروف رامبو، أي رامبو يحتل ويقتل ويغتصب، لأنه في النهاية ظروفه صعبة.

فقد استوقفني خبر صدور حكمٍ مخفف ضد جندي أميركي اغتصب امرأة نيجيرية في إيطاليا،بعد أن اعتبرت المحكمة الموقرة أن خدمته في العراق جعلته أقل حساسية لمعاناة الآخرين.. أي والله!

ووفقـــًا لوثائق محكمة إيطالية، فقد حُكِمَ على جيمس مايكل براون، جندي المظلات البالغ من العمر ٢٧ عامـــًا حينذاك- من ولاية أوريغون، ومتمركز في شمال إيطاليا- بالسجن لمدة خمس سنوات وثمانية أشهر، في جريمة الاغتصاب، التي وقعت في فبراير ٢٠٠٤.

ولكن ما هي تفاصيل الجريمة؟ لا شيء يذكر.. فقد قام براون بضرب وتقييد يدي المرأة، وهي نيجيرية تقيم في بلدة فيتشيترا، واغتصبها في قُبلها ودبرها، وتركها تجول في الشوارع عارية بحثـــًا عن مساعدة. هذه هي جريمته التي نال عنها حكمـــًا مخففـــًا.

طيب، ما علاقة ظروف مشاركته في الحرب على العراق واغتصاب امرأة بهذه الطريقة الوحشية؟.. هل كانت الضحية تمثل خطرًا على المغتصب المسلح؟ سؤال يرن في أذني، وربما آذانكم جميعـــاً.

وتحمل هذه الجريمة، وفق القانون الإيطالي، عقوبة السجن لمدة ثماني سنوات، لكن القضاة خففوا العقوبة، بسبب "الظروف المخففة" للآثار النفسية لسنة الخدمة، التي أمضاها براون في العراق.

ولم يقض براون المحتجز في سجن عسكري أميركي في مانهايم بألمانيا العقوبة الصادرة ضده في جريمة الاغتصاب؛ لأنه وفقـــاً للقانون الإيطالي، مسموح له بالعودة إلى الولايات المتحدة، في انتظار الطعن المقدم في الحكم.

تعالوا نقرأ معـــاً ما قاله القضاة في تفسير تفصيلي لأسباب الحكم.. حيث قالوا إن الجنود الأميركيين في العراق يواجهون "حرب ثوار ضد عدو غير مرئي، تشن بكل الوسائل، ولا توجد نهاية لها في الأفق، وهو ما يسبب ضغوطـــاً بالغة على قوات الاحتلال".. وأضافوا أنه "لمدة عام، لم يقتصر دور جندي المظلات براون على قتل واحتجاز العدو، وإنما تجنب الكمائن التي لا يمكن التكهن بها، التي تنصب باستخدام جميع الوسائل"..

مهمة عويصة طبعـــاً بالنسبة لقوات تقول مجلة "لانسيت" في عام ٢٠٠٦ إنها قتلت أكثر من ١٠٠ ألف عراقي.

وقال القضاة إن "العبء النفسي الممتد، الذي تعرض له المتهم، وانخفاض أهمية الحياة الذي يوليه للذين حوله، يمكن أن يؤثر فقط على ارتكاب الجرائم".. إنه حكم تاريخي، يقول إن الجنود الأميركيين يصابون بالتبلد، ويفقدون الإحساس، عندما يقاتلون ويحتلون.

شيء شبيه بهذا قرأته قبل نحو ٣٠ عامـــاً، في كتاب" أدب القفز بالمظلات"، للأديب والشاعر الفلسطيني معين بسيسو .. فقد تحدث -في عدد من فصول الكتاب- عن جرائم القتل والاغتصاب الأميركية، التي وقعت في فيتنام، خلال تلك الحرب التي لا ينساها الأميركيون.. في أحد فصول الكتاب، يرسم بسيسو، بأسلوب أدبي ولغة شاعرية، اللحظات المؤلمة لاغتصاب ذوي الأحذية الثقيلة فتاة فيتنامية، ويتهم الجنود الأميركيين بأنهم يقتلون "الغزلان".. وربما تحضرني الآن صور اغتصاب ضحية فيتنامية، كما رسمها فيلم أميركي آخر، يحمل عنوان **War Casualities**

الجندي الأميركي براون إذاً ليس استثناءً.. إذ يقول البنتاغون إن الجيش الأميركي تلقى في عام ٢٠٠٦ تقارير بوقوع ٨٨ حادث "سوء سلوك جنسي" في منطقة القيادة المركزية الأميركية، التي تشمل العراق والكويت، فضلًا عن القرن الإفريقي، ومنطقة الخليج، وآسيا الوسطى، بما في ذلك أفغانستان.

وتعرفون طبعـــًا ما جرى ويجري في معتقلات أميركية سيئة السمعة، مثل أبو غريب في العراق، وغوانتانامو في خليج كوبا.. وفي يناير ٢٠٠٤، قال بيان –صدر عن معتقلات عراقيات أفرج عنهن من معتقل أبو غريب– إن عددًا من المعتقلات تعرضن لاعتداءات جنسية من قبل جنود الاحتلال الأميركي، وإن بعضهن اغتصبن خلال اعتقالهن في هذا المعتقل.

وأكد البيان، الذي حمل نداء استغاثة، أنّ بعض المعتقلات قد فقدن عذريتهن.. وأن بعضهن "يحملن في أحشائهن أجنة من جراء عمليات الاغتصاب" التي نسبها البيان إلى الجنود الأميركيين في المعتقل.

وقد أقر البنتاغون بعلمه بوجود قرصين مدمجين على الأقل، يحتويان على مئات الصور لأفراد القوات الأميركية وهم "يسيئون معاملة" المعتقلين.. بما في ذلك "ضرب معتقل عراقي حتى فقد وعيه، وممارسة الجنس مع امرأة معتقلة، والتحلق حول جثة"، حسب صحيفة "الغارديان" البريطانية في عدد ١٠ مايو ٢٠٠٤.

وفي مواقع مختلفة من العالم، يترك الجنود الأميركيون وراءهم صورة مروعة، عنوانها "المغتصبون مروا من هنا".. ففي أوكيناوا جنوب اليابان، اعتقل جندي من مشاة البحرية الأميركية في فبراير ٢٠٠٨، لاتهامه باغتصاب فتاة يابانية، تبلغ من العمر ١٤ عامـــا. وسرعان ما تولى الجيش الأميركي تسوية الموضوع، دون توجيه اتهامات إلى هذا الجندي. وأثارت الواقعة حالة من

الغضب، وأعادت الى الأذهان ذكريات اغتصاب تلميذة، عمرها ١٢ عامـــاً، في جزيرة أوكيناوا عام ١٩٩٥ في جريمة أثارت احتجاجات قوية على وجود القواعد الأميركية باليابان، وأثارت شكوكـــاً حول التحالف الأمني بين البلدين.

وعلى سبيل المثال، فقد صدر قرار اتهام لأربعة من مشاة البحرية الأميركية "المارينز" في جريمة اغتصاب فتاة فلبينية في شاحنة، في نوفمبر ٢٠٠٥. وكان هؤلاء المارينز يشاركون في تدريبات عسكرية مشتركة مع القوات الفلبينية في سوبيك، عندما وقعت الجريمة. وحسب متحدث باسم الرئيسة الفلبينية، فإن العلاقات القوية بين الفلبين والولايات المتحدة لن تتأثر رغم الحادث.

طبعـــاً.. علاقات تاريخية

إن دروس التاريخ تقول لنا إن العلاقات التاريخية "إياها" مع "حليف" مثل الولايات المتحدة، تنتهي عادة بعلاقات جنسية.. بالتراضي في زمن السلم، وبالإكراه في زمن الحرب.

فحذار يا سامعي الصوت من تحالفات تجر ويلات.

سلطان الخوف

"لا يستطيع أحد ركوب ظهرك إلا إذا كنت منحنيـــاً"

مارتن لوثر كنغ

ربما من قبيل المصادفة أن تكون أولى روايات الأديب نجيب محفوظ التي حظيت بقراءتها هي" أولاد حارتنا".

عالم غريب، حافل بالقصص والحكايات المدهشة، التي أسرت قلب وعقل فتى في الثانية عشرة من العمر. لم أكن أعرف وقتها تفاصيل الجدل الدائر حول الرواية، ولا الاعتراضات التي يثيرها البعض ضد كاتبها.

غير أن ما استوقفني حقـــاً هو عالم الفتوات.

وأول ما تبادر إلى ذهني هو: من هو الفتوة؟ ولماذا يسمح له الآخرون بأن يكون كذلك؟ ما هو سر الطغيان والجبروت الذي يمارسه على الآخرين؟

تجربة الحياة علمتني أن الفتوة مولود شرعي لخوف الآخرين. فلا يمكن أن يظهر فتوة أو طاغية في مكان أو بلد ما، إلا إذا كان مناخ هذا المكان أو البلد مسكونا بالخوف.. الخوف من القوة أو السلطة أو المال... إلخ.

الخائفون إذاً هم تربة ينبت فيها الطغاة.

هؤلاء الذين يصنعون لأنفسهم أصناما يخضعون لها، مع أنهم هم الذين صنعوها، بل ويستطيعون تحطيمها إن امتلكوا العلم والإرادة.

نعم، لأن الجهل هو العنصر الآخر، الذي يغذي الطغاة، ويمدهم بمزيد من الطغيان.

لا أعرف شعبــاً حيــاً، يملك العلم والإرادة، يقبل بطاغية أو يسكت عليه عقودًا عدة مثلا.. أقول: مثلا.

يقول الله – عز وجل– في محكم آياته: "إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا" (النساء -الآية ٩٧).

إن الاستكانة والأنامالية والسلبية والفرقة تولد كلها ضعفا، ينهش في جسد الجماعة أو الأمة.. أي أمة.. الأمر الذي يساعد على ظهور طغاة وفتوات في كل عصر.

أما المستكينون، الذين يستسلمون، ويرفعون الراية البيضاء دون مقاومة، فهؤلاء هم الذين يسمحون لمصاصي الدماء بالتغذي على دمائهم.. ودمائنا.

والسكوت على الخطأ – في رأيي– خطيئة.

ومن هنا تبدو أهمية الكلام.. فالكلمة سلطان إن هي قامت بواجبها في الدفاع عن الحق، أو في مواجهة الباطل. أما الألفاظ الجوفاء، التي قد تصنع ضجيجا، لكنها لا تدفع شرًا أو تجلب شيئـــاً من النصر، ولا بأس إن لم تصب مقتلا من عدو، أو ترده على الأقل عن عدوانه.. فهي المعول الذي يهدم ولا يبني شيئـــاً.

في المشهد الأول من مسرحية" مأساة الحلاج الصوفي الثائر " للشاعر المصري صلاح عبد الصبور، ترى جماعة من العابرين جسد الحلاج ممزقـــاً، مشدودًا إلى الصليب، فيسألون ياقوم! من هذا الشيخ المصلوب؟ ويجيب مقدم الحاضرين: أحد الفقراء... ويمضي الحوار:"هل تعرف من قتله؟ نحن القتلة. هل فيكم جلاد؟ لا.. لا! أبأيديكم؟ بل بالكلمات!"

كان هؤلاء "شهود الزور، الذين أغراهم ذهب السلطان وأرهبهم سيفه، فشهدوا بزندقة الحلاج، وقتلوه بالكلمات[1]"

وفي مسرحية "بعد أن يموت الملك" لصلاح عبد الصبور أيضـــاً.. يحس الشاعر بضعفه أمام رجال البلاط.. فهم يملكون السيف؛ ولا سلاح له إلا الكلمات، فيقول: ".. لكن ماذا تصنع كلماتي؟ هي أهون من أن تطمح للفعل، أهون من أن تغدو سيفـــاً أو ترســـاً، كي تقتل أو تحمي من يقتل ..". وتجيب

---

[1] د. عبد القادر القط، هل كان ذلك بالأمس؟، جريدة "الأهرام"، القاهرة، ٥ نوفمبر ٢٠٠١.

الملكة: "لا تبخس كلماتك ما تستأهله من قدر، فالكلمة قد تفعل".

نعم.. الكلمة قد تفعل الكثير.

انزعوا عنكم سلطان الخوف.. لنقضي على الفتوات، ونحطم أصنام الطغاة التي صنعناها.. بدلا من أن نتحول بصمتنا المريب إلى شهود زور.

أما الذين يقولون لك، بعدم مبالاة، إنك لن تستطيع تغيير الكون.. فهؤلاء أقول لهم:

نعم.. أنا وأنت نستطيع تغيير الكون.

أجندة سبيلبرغ

في قاعة صغيرة بكلية الصحافة في جامعة ويلز- كارديف البريطانية، كان أستاذ الدعاية السياسية، جيف مانجهام، يتحدث إلى طلبة الماجستير عن الدعاية النازية ضد اليهود، فيما يدور شريط وثائقي، عارضا لقطات من العهد النازي، والرسوم الدعائية التي انتشرت آنذاك للإساءة إلى اليهود.

فجأة.. تحدث طالب من أحد أطراف القاعة قائلا: "وماذا عن الدعاية اليهودية ضد النازية؟" جفل جيف للحظة، وقال بصوته الجهوري: "ماذا تقصد؟".. لم تكن الأفكار مرتبةً بعد في ذهني للإجابة عن هذا السؤال.. لكني أجبت بسرعة قائلًا إن اليهود حاولوا، بعد العهد النازي، تشويه صورة الألمان ككل- وليس فقط هتلر وأركان نظامه- أثناء الفترة النازية عبر سلسلة من الأعمال الأدبية والتاريخية والسينمائية.

بعد المحاضرة، سألت جيف عما إذا كان من الممكن أن أنجز بحثي في هذه المادة عن الدعاية اليهودية ضد الألمان، أثناء العهد النازي. بدا الرجل متشككـــًا من مدى إمكانية توافر المصادر والمعلومات اللازمة لإنجاز بحث أكاديمي رصين حول هذا الموضوع الشائك، وفي النهاية أبدى موافقة مترددة.

وهكذا انطلقت في جمع المعلومات والمراجع والمصادر المتوافرة عن هذا الموضوع، الذي استهواني بشدة. وفي نهاية الأمر استقر

بي الأمر لأن أنجز الدراسة، معتمدًا على فيلم ستيفن سبيلبرغ "قائمة شندلر" أو **Schindler's List** وكتاب دانييل غولدهاغن **Hitler's Willing Executioners: Ordinary Germans and the Holocaust** ووضعت صورة غلاف الكتاب وملصق الفيلم على الصفحة الأولى للبحث، الذي بينت فيه كيف استخدم سبيلبرغ مختلف أساليب الدعاية في فيلمه ضد الألمان — حتى أوسكار شندلر.. نجده في الأساس غير عابئ باليهود، لولا تأثره بولائهم وذكائهم.. ونسائهم– في حين لم نجد يهوديـــًا واحدًا سيئـــًا أو شريرًا... فكلهم عنده ملائكة وضحايا مضطهدون.

وحتى أتمكن من دراسة الفيلم، أعدت مشاهدته مراتٍ ومراتٍ على شريط فيديو اشتريته — وللأسف، صادرت سلطات مطار القاهرة شريط الفيديو لدى عودتي إلى مصر.. واختفى في ظروفٍ غامضة في مكتب مدير الرقابة على المصنفات الفنية، علي أبو شادي، وكنت قد شاهدته في دور السينما الأميركية لدى عرضه، ورأيت كيف كان بكاء الجمهور على هؤلاء "الضحايا" يقطع نياط القلب– ورصدت النقاط الرئيسة التي تكشف عن مبالغات وتحويرات وفي بعض الأحيان أكاذيب عن شخصية أوسكار شندلر.. اعتمادًا على شهادات عدة مكتوبة منها شهادة زوجة الرجل التي نفت صحة كثير مما ورد في الفيلم عن زوجها.

يتحدث الفيلم، المتقن فنيـــاً، الذي صور في معظمه باللونين الأبيض والأسود - مع مرورٍ صامت ومدروس بعناية لتلك الطفلة ذات الثوب الأحمر، عبر شريط الفيلم، لتمثل البراءة المغتصبة للضحايا- عن قصة يقول إنها حقيقية.. لكن عددًا من الأشخاص، الذين صور الفيلم حياتهم، أقروا بأن ما جرى فعلا كان مختلفــاً عما شاهدناه على الشاشة. وفي المقابل، نجد الألمان قساة القلوب، الذين يقتلون اليهود بلا رحمة.. مثل ذلك الضابط الذي لعب دوره ببراعة رالف فاينس، والذي كان يتلذذ بقتلهم.. وحتى عندما تحركت مشاعره تجاه خادمته اليهودية، كان يقاوم ذلك الشعور.. وفي أحد الحوارات معها، أخذ يتلمس وجهها وهو يقول إنها لا يمكن أن تكون بشرًا؛ لأنها في النهاية في نظره أقل من أن تكون كذلك.

يغفل الفيلم تمامــاً حقيقة أن هتلر قتل من الغجر والسلاف والمثليين والمرضى العقليين وغيرهم، بأرقام تفوق من قتلهم من اليهود.. ويجعل الهولوكوست حقيقة تاريخية مؤكدة بشكل لا يسمح لأحد بأن يناقش أي تفاصيل تتعلق بوقائعها وعدد ضحاياها وما إلى ذلك من أمور. وليذهب أي باحث ومؤرخ - مثل الفرنسي روجيه غارودي والبريطاني ديفيد إيرفينغ اللذين شككا في حقيقة ما جرى- إلى الجحيم.. أو ساحات القضاء الغربية التي تدينهم.

الأخطر من ذلك، أن نهاية الفيلم تتحدث عن هزيمة النازية، فإذا بضابط روسي يقول للضحايا اليهود، عندما يسألونه إلى أين يذهبون، إنه يعلم أنهم لا يمكنهم الذهاب في هذا الاتجاه ولا ذاك الاتجاه.. ولكن بوسعهم الذهاب في هذا الاتجاه.. ويشير بيده إلى ناحية معينة، لتنتقل الصورة إلى القدس، مع أغنية تتردد في الخلفية عن العودة إلى أورشليم.. في حين يرافق الممثلون الرئيسيون اليهود، الذين جسدوا شخصياتهم على الشاشة، وهم يضعون الورد على قبر شندلر.. وكأن الفيلم يقول إن القدس – وربما فلسطين– هي التعويض الطبيعي لضحايا النازية من اليهود.

كانت الأوسكار في انتظار سبيلبرغ في ذلك العام.. في حين تجاهلته الأوسكار عندما تحدث – على سبيل المثال– عن الرق ومأساة الأفارقة، الذين تاجروا فيهم ونقلوهم إلى القارة الجديدة أميركا في فيلمه **Amistad** لأن الأفارقة في النهاية ضحايا هامشيون بالنسبة إلى هوليوود.

وفي بحثي– الذي نلت عنه درجة الامتياز، بفضل نزاهة وحيادية أستاذي جيف، الذي أثنى على الدراسة– كنت أحاول رصد أساليب الدعاية اليهودية، التي تتلاعب بالعقول، وتعزف على وتر عقدة الذنب لدى الغرب، على حسابنا طبعاً نحن العرب.

سبيلبرغ مخرج كبير، يملك أجندته السياسية، وربما كان قد أنجز قائمة شندلر، كي يتصالح مع ماضيه، ويؤكد انتماءاته

كيهودي.. وإذا كان في فيلمه المذكور قد ركز على اليهود كضحايا للنازية، فإنه في فيلمه "ميونيخ" يجعل اليهود ضحايا للعرب، ليس أمامهم سوى الرد على العنف الفلسطيني، بالأسلوب الذي يفهمه الفلسطينيون: العنف المضاد.

سبيلبرغ ذاق طعم الأوسكار لأول مرة عبر فيلمه قائمة شندلر.. ولذا نجده يغازل الأوسكار من جديد عبر البوابة الأكثر تأثيرًا ونفوذًا.

ولا عزاء للعرب.

الأوسكار.. من ميونيخ إلى الجنة

ليلة الأوسكار للعام ٢٠٠٧ كانت بنكهة شرق أوسطية.

إذ استرعى انتباهي أن فيلمين عن الصراع في الشرق الأوسط يتنافسان على جوائز الأكاديمية الأميركية للفنون والعلوم السينمائية "الأوسكار"، وكلاهما أثارا ردود فعل متباينة لدى عرضهما.

أعتقد أن الموضوع يستحق أن نتوقف عنده قليلا، وأن ندع أطرافه يتحدثون عنه بأقل قدر من التعليق والتدخل من جانبنا.

الفيلمان هما "الجنة الآن"، الذي يدور حول انتحاريين فلسطينيين.. والآخر هو "ميونيخ" ويحكي عن عملاء إسرائيليين ينفذون سلسلة اغتيالات ضد فلسطينيين، ردًا على مقتل ١١ رياضيـــًا إسرائيليـــا في دورة الألعاب الأوليمبية التي أقيمت في ميونيخ عام ١٩٧٢.

و"الجنة الآن"هو أول فيلم فلسطيني يتم ترشيحه لنيل جائزة أوسكار لأحسن فيلم أجنبي.. في حين رشح "ميونيخ" –وهو من إخراج المخرج الشهير ستيفن سبيلبرغ، وشارك في كتابته توني كوشنر، الذي فاز بجائزة بوليتزر المرموقة للكتابة– لنيل خمس جوائز، بينها أفضل فيلم وأفضل سيناريو مقتبس.

وفي تصريحات صحفية، قال كوشنر إنه مازال يشعر بالضيق إزاء رد الفعل المعادي، الذي قوبل به "ميونيخ"، الذي يدور حول الثمن الأخلاقي، الذي يدفعه عملاء جهاز الموساد الإسرائيلي، الذين يتعقبون ويغتالون فلسطينيين، يعتبرهم الموساد مسؤولين عن قتل رياضيين إسرائيليين في دورة ميونيخ الأوليمبية.

المفارقة أن أنصار إسرائيل شنوا حملة على الفيلم قبل أن يتم عرضه، واعتبروا أنه يضع من يصفوهم بالإرهابيين في كفة واحدة مع الذين يسعون خلفهم.. واهمته جماعات موالية لإسرائيل بتشويه التاريخ، وانتقاد السياسات الأمنية الإسرائيلية، وقالت إنه أعطى صورة سيئة للرد الإسرائيلي على العملية، وأظهر بشكل خاص رغبة قوية في الانتقام تسيطر على الإسرائيليين.

ولا تعليق لدينا على هذا الكلام.

ولعل أهم اقتباس في الفيلم هو جملة وضعها كوشنر على لسان غولدا مائير، رئيسة وزراء إسرائيل آنذاك، قالت فيها إن "كل حضارة تجد من الضروري أن تتوصل إلى حل وسط مع القيم التي تؤمن بها". ويقول المؤلف إن هذه العبارة تشير ضمنيــاً أيضــاً إلى الأساليب التي تتبعها الولايات المتحدة في حربها ضد الإرهاب.. وهي نقطة ظهرت جليــاً في اللقطات

الأخيرة من الفيلم لمركز التجارة العالمي. ويقول الفيلم بشكل أو بآخر إن العنف يولد العنف.

ويرى كوشنر أن "الهجوم على "ميونيخ" لم يكن منسقاً "ولكنه ارتقى لدرجة الحملة الحقيقية، حتى لا يرى الكثيرون الفيلم، واختلط الأمر بمسائل الأوسكار".. ولكن الفيلم على أي حال حصل على خمسة ترشيحات للأوسكار، ولم يغرق في غياهب بحر التجاهل.

وعقد الجدل الدائر حول فيلم "ميونيخ" من الموقف المشحون بالنسبة لإسرائيل، فيما يتعلق بجوائز الأوسكار، بعد ترشيح فيلم "الجنة الآن" لهاني أبو أسعد لبضع جوائز.

وأراد مخرج "الجنة الآن" أن يفسر السبب وراء رغبة الشباب في نسف أنفسهم وآخرين بالعشرات في عمليات انتحارية.. ويقول أبو أسعد إن "الإرهاب ينتج عن إرهاب آخر .. وإن الهجمات الانتحارية رد فعل " على الإرهاب الإسرائيلي".

ويتتبع الفيلم مصير خالد وسعيد، وهما شابان فلسطينيان من مدينة نابلس في الضفة الغربية، وقع اختيار جماعة فلسطينية -لم يذكر اسمها- عليهما، لتنفيذ عملية انتحارية في تل أبيب. وعندما لا تسير الخطة على ما يرام، يضطر الصديقان لاتخاذ قرارٍ مرة أخرى، بشأن مدى رغبتهما حقاً في المضي قدماً في تنفيذ

العملية. وينتهي بهما الحال إلى اتخاذ قرارات مختلفة تمامـــًا، وغير متوقعة.

وحسب الفيلم، فقد أقبل أحد المهاجمين على مهمته تكفيرًا عن الذنب الذي شعر به، لأن أحد أقاربه تجسس لصالح إسرائيل، وعكست عباراته الضغوط المعقدة داخل المجتمع الفلسطيني.

وبالرغم من موضوع الفيلم المثير للجدل، فإن فيلم "الجنة الآن" فاز بجائزة الكرة الذهبية "غولدن غلوب" في يناير ٢٠٠٧، الأمر الذي جعله منافســـًا قويـــًا على جائزة أوسكار أحسن فيلم أجنبي.

الطريف - وشر البلية ما يضحك- أن أكاديمية الفنون والعلوم السينمائية حارت في أمر تقديم الفيلم. فقد قال عنه موقع الأكاديمية على الإنترنت إنه من "فلسطين"، ما فجر شكاوى إسرائيلية من أن دولة فلسطين غير موجودة.

وإذا كان "الجنة الآن" قد لفت الانتباه، ونال الترشيحات.. فإنه واجه انتقادات قاسية من قبل جماعات إسرائيلية وأميركية يهودية، قالت إن الفيلم يمجد المفجرين الانتحاريين بدلا من تفسير سبب قيامهم بذلك.. ورفضت دور السينما الإسرائيلية الكبرى عرض فيلم "الجنة الآن"، بعد أن عبر خبراء التوزيع عن

خوفهم من ضعف الإقبال على مشاهدة فيلم عمن يوصفون بالمفجرين الانتحاريين.. كما تحدثوا عن مقاطعة محتملة للفيلم.

وأرسلت مجموعة من الإسرائيليين، الذين فقدوا أقارب لهم في عمليات تفجير، التماساً وقع عليه ٣٢ ألف شخص إلى الأكاديمية، مطالبين باستبعاد الفيلم، وهو ما لم يحدث مع أي فيلم رشح لإحدى جوائز الأوسكار من قبل.

ولكن جيمس زغبي، رئيس المعهد العربي الأميركي، انتقد هذا التصنيف والجهود الإسرائيلية لجعل منشأ الفيلم السلطة الفلسطينية وليس فلسطين. وقال إن "المشكلة هنا هي أن الناس من إسرائيل ليسوا قانعين بالسيطرة على مختلف أوجه الحياة الفلسطينية اليومية، بل إنهم يريدون التحكم في طريقة تصوير الفلسطينيين لأنفسهم في العالم الخارجي. يتعين عليهم أن يتركوا الناس يعبرون عن أنفسهم" .. إنها إذن محاولة للقتل بمسدس كاتم للصوت، مع رفض أن يكون للضحية حق الشعور بالألم.

المعلقة في صحيفة "يديعوت أحرونوت" الإسرائيلية إيريت لينور كتبت مقالا في الصحيفة، هاجمت فيه الفيلم بعنف، ووصفته بأنه "نازي". وذكرت في مقابلة أجرتها معه في هوليود إن أبو أسعد اشترط عدم استخدام كلمة "إرهابي" في المقابلة لوصف المفجرين الانتحاريين.

وقال أبو أسعد إن "هذا الإرهاب ناتج عن إرهاب آخر. التفجيرات الانتحارية رد فعل على إرهابكم"، مقترحاً استخدام كلمة "عمل مضاد للإرهاب" بدلا من ذلك. وأضاف أن "المحتلين والاحتلال هم الإرهابيون الحقيقيون.. الإرهاب الحقيقي يسرق حق الفلسطينيين في العيش أحرارًا على أرضهم".. وهو هنا يحاول ضبط المصطلحات، كي يبني عليها رؤيته.

ويرتدي المخرج أبو أسعد ثوب الحكمة، حين ينبه إلى أنه "قبل ٣٠ عاماً لم تحدث تفجيرات انتحارية.. إنه قدر يغلي".. وربما يكون بركاناً قابلا للانفجار في أية لحظة.

واستعاد مخرج الفيلم حادثة، أحس فيها أنه تم إذلاله على حاجز قلندية قرب القدس، وهذا ما جعله يدرك ما يدور في عقول الناس، الذين يتحولون لاحقاً إلى انتحاريين. ويتساءل المخرج – الذي ولد وترعرع في الناصرة، لكنه جعل من هولندا محلا لإقامته– قائلا:"هل تعتقدون حقيقة أنهم يقتلون من أجل قتل اليهود؟ تعالوا انظروا.. إنهم لا يختلفون عنكم كبشر إذا كنتم تعتقدون أنهم يختلفون فهذه هي العنصرية".

ويرى مخرج "الجنة الآن" أن المساواة هي مفتاح حل النزاع. ويضيف أن "الحل سيأتي عندما تعترفون بالحقوق المتساوية لليهود والعرب على كل الأرض بما في ذلك تل أبيب والناصرة. وهذا

يتضمن أيضـــاً الاعتراف بحق العودة. بعد أن تعترفوا بهذه الحقوق، يمكننا عندها اقتسام الأرض بالتساوي. هذا سيكون حلا عمليـــاً"... لكن هناك من ينكر حق الآخرين في الحياة بكرامة فوق أرضه.

وربما تعين علينا أن نتأمل ما قاله أبو أسعد، حين قيل له إنه قد يصبح أول إسرائيلي يفوز بالأوسكار، حيث رد قائلا: "لست إسرائيليـــاً".. وعندما قيل له: "ولكنك تحمل جواز سفر إسرائيليـــاً" رد بالقول: "هذا صحيح، لكنني لست إسرائيليـــاً.. إسرائيل تسمي نفسها دولة يهودية، وأنا لست يهوديـــاً. إذا أصبحت إسرائيل دولة لكل مواطنيها، عندها يمكن أن أقبل بأن أكون إسرائيليـــاً.. لا يمكنني القبول بالدولة اليهودية، طالما استمر الصراع على الأرض".

والصراع طبعـــاً مستمر حتى إشعار آخر.

ونطمئن المخرج أبو أسعد من الآن، بأنه، وفق هذا المنطق، لن يكون إسرائيليـــاً في المستقبل القريب.

تافهون بلا حدود

ليس عندي شك في أنهم سيكونون أكبر حزب في مصر والعالم العربي.

وأقترح أن يكون اسم تلك الجماعة "تافهون بلا حدود" (الرجاء احترام حقوق الملكية وبراءة الاختراع!).. على غرار المراسلين والأطباء.

إنهم أولئك الذين أهداهم الأديب طه حسين –بحرقة– مقدمة أحد كتبه بقوله: "إلى الذين لا يعملون.. ويسوؤهم أن يعمل الآخرون".

وهؤلاء عادة جماعة من المتخاذلين والجهلة، الذين يفتون بغير علم، والمتسلطين على مواقع ليسوا أهلا لها، ولذا يخافون عليها.. تراهم يرتمون في أحضان الروتين، ويتفننون في صنع العقبات، ويحركون الفخاخ والمصائد.. هم العدو فاحذرهم.. لأنهم ببساطة السوس الذي ينخر في جسد المجتمع.

المصيبة أن هؤلاء خفافيش ظلام.. لا يردعهم جهلهم. فتجدهم يتحدثون عما لا يعرفون، ويبتكرون سيناريوهات غريبة وحكايات أغرب لكل شيء، ويقللون من شأن من يعمل بجد وإخلاص، فيرمونه بدائهم.. وينسلون.

وجماعة "تافهون بلا حدود"..لا حدود لتفاهتها وتسطيحها للأمور، واعتمادها على التأويلات والشائعات للإفتاء في الشأن العام، ونشر الأكاذيب، والحط من قدر الآخرين كذبا وزورا وبهتانا.

قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "سيأتي على الناس سنون يُصدق فيها الكاذب.. ويُكذَّب فيها الصادق.. ويخوَّن الأمين.. ويؤتمن الخائن.. وينطق فيها الرويبضة. قيل : يا رسول الله، وما الرويبضة؟ قال: السفيه يتكلم في أمر العامة".

وكم ذا في بلادنا من تافهين.. بلا حدود.

أكبر من الزنزانة

ها نحن ذي في جوف الظلام

وأي ظلامٍ أشد ظلمـــاً وأحلك ظلمة من السجن

هنا الروحُ حبيسةٌ، والجسدُ مقيدٌ، والحصارُ يُسلمكَ إلى الحصار.

شهور أو سنوات تسلخُ من حياتك، لكن الصامدَ فقط هو ذلك الذي يبقى عصيـــاً على سجانيه.

إنه يضعُ الجلاد في زنزانة ضيقة اسمها المطاردة والتعذيب، لا يملك سوى مفتاح ملطخ بالقهر، في حين يخرجُ المقاومُ حرًا، يتنفس هواء إيمانه برسالته.

والحرُ يملكُ قامةً لا تكبلها السلاسل.

للعتمة ألوان، لا يعرفها إلا من يحملقُ في سقفِ زنزانته وحيدًا. هناك فقط يعرفُ لذة اكتشافِ الألوان النائمة في الظلام.

سهى بشارة، ابنة قرية دير ميماس في جنوب لبنان، تعيش في منفاها الاختياري، بعد أن حاولت اغتيال أنطوان لحد، قائد ميليشيات ما يسمى "جيش لبنان الجنوبي" عام ١٩٨٨، ودفعت ثمنـــاً لذلك نحو عشر سنوات من عمرها، في معتقل الخيام سيء السمعة.

تقولُ سهى: "ولكن أفظع الآلام هي تلك التي يستشعرها المرء وهو في قاع زنزانته.. إذ يسمع صراخ الآخرين أو الأخريات وهو يثقب رأسه بلا انقطاع.."[٢].

وللمعتقلين في عالمنا العربي ظلمـــاً وبهتانـــاً، أو حتى من دون محاكمة، أقولُ: السجن قبر.. إما للسجين إن استسلم، أو للسجان إن طغى..

ما أصدق الشاعر حين صنف الناس قائلا:

النـاسُ صنفان: موتى في حياتهمو

وآخرون ببطن الأرض أحياء

وفي الذاكرة بقايا صور لرجالٍ، الشمسُ تنامُ في صدورهم، بدل أن تنام في البحر: نلسون مانديلا الذي كان أكبر من زنزانته.. صنع هوية وطنه بصبر وأناة، حتى أصبحت جنوب إفريقيا على ما هي عليه اليوم.

وفاتسلاف هافيل، الذي كان يضعُ فرشاة أسنانه في جيبه أينما حل، فلا أحدَ يدري في تشيكوسلوفاكيا السابقة ما هو مصيره إن كان صوته معارضًا، إلى أن أصبح هذا الأديب رئيســـاً لتلك الدولة، الخارجة من تحت أنقاض الحكم الشيوعي.

---

[٢] سهى بشارة، "مقاوِمة"، ترجمة: أنطوان أبو زيد، دار الساقي، لندن، ٢٠٠٠، ص ١٧٠.

وتيسير علوني، بصوته الهادئ وأدبه الجم ومهنيته العالية، وإيمانه بأنه يدفع عن أهل الإعلام ضريبة حرية الرأي والتعبير الموضوعي، في عالم مسكون بالتحيز والتحزب والاستقواء على الأفراد والشعوب.

وغيرهم الكثير، ممن سيذكرهم التاريخ، وينسى أسماء سجانيهم، الذين ستتجاهلهم الرياحُ كأي قمامةٍ عابرة.

الحرية الحقيقية هي ألا تسجنَ نفسك في قبو الخوف ومعتقل الاستكانة وزنزانة الاستسلام.

في "مذكرات بيت الأموات"، يقول فيودور دوستويفسكي عن شقاء تجربة السجن: "انتظرتُ لحظة الحرية، واستدعيتها على عجلٍ، لأنني أريدُ أن أعد نفسي من جديد لنضال جديد".. فمن رحم المعاناة يولدُ الصمودُ والإصرارُ والأملُ في غدٍ أفضل.

بحروفٍ دالة، ومعانٍ أكثر دلالة يقولُ الشاعر الفلسطيني محمود درويش: "إننا ننسى أن السَجَّان هو، بصيغة ما، سجينٌ: إنه سجينٌ بلا أُفُق، ولا يحمل أيّ رسالة، وإنّ ما يبحث عنه ليس هو تحقيق حريته ، وإنما منع الآخَر من أن يكون حُرًا. إنه ضحيةُ نفسه. السَجَّان لا يستطيعُ الغناءَ لأنه يَجهلُ كلَّ شيء عن الكآبَة، إنّه لا يملك، لا الندَم إلى السماء ولا الحنين إلى البحر.

"أما السجين، فبالمقابل، يُغنّي، لأنّ الغناءَ وسيلتُهُ الوحيدة للإحساس بِوُجودِه الخاصّ، والبرهنة عليه. وهو في أعماق نفسه

يُحِسُّ بأنه أكثرُ حريةً من سجّانِه، الذي لا يَملِكُ وعيـــاً بحريته الخاصة وبعزلته الخاصة".

أيها السجان: تظن نفسك الجلاد.. من أدراك أنك لست الضحية!

الوارثون

"ملـــكٌ أم كتابة؟"

صاح بي صاحبي، وهو يلقي بدرهمٍ في الهواء

ثم يلقفه

(خارجين مـــن الدرس كنا .. وحبر الطفولة فوق الرداء

والعصافير تمرق عبر البيوت

وتهبط فوق النخيل البعيد).

...

"ملكٌ أم كتابة؟"

صاح بي .. فانتبهت ورفـــت ذبابـــة

حول عينين لامعتين

فقلت "الكتابة"

...

فتح اليد مبتسمـــاً، كان وجه المليك السعيد

باسمـــاً في مهابة

...

"ملكٌ أم كتابة؟"

صحت فيه بدوري

فرفرف فـــــي مقلتيه الصبـــا والنجابة

وأجـــاب : "الملك"

(دون أن يتلعثم.. أو يرتبك)

وفتحت يدي

كان نقش الكتابة

بارزًا في صلابة""

أمل دنقل – قصيدة: "من أوراق أبو نواس"

حتى في اليمن، الذي كان سعيدًا، الدنيا حظوظ.. ومواريث أيضـــًا.

تفوق الرئيس اليمني علي عبد الله صالح على جميع الرؤساء الذين حكموا البلاد قبله... وحتى هؤلاء الذين مزجوا بين الدين والعشيرة والسياسة لينعموا بالسلطة، لم ينجحوا في البقاء في الحكم لفترةٍ تصل إلى ثلاثة عقود ونيف، كما فعل صالح.. والحبل على الجرار كما يقولون.

الرجل قال في حديث تلفزيوني لقناة الجزيرة، أجراه معه أحمد منصور في سبتمبر من عام ٢٠٠٦ إن لا أحد يعرف اليمنيين

مثله.. فهو يحكمهم منذ نحو ٢٨ عامـــاً (حتى تاريخ تلك المقابلة التلفزيونية).

غير أن اليمنيين هم الذين يعرفون صالح جيدًا، فقد أجبروه على التنحي، لينتهي عهده الرئاسي دستوريـــاً وقانونيـــاً في يوم السبت ٢٥ فبراير من عام ٢٠١٢، ليغادر البلاد، ويتفرغ - حسب مصادر مقربة لصالح من حزب المؤتمر الشعبي العام- لكتابة مذكراته، تحت عنوان "قصتي مع الثعابين" اتساقـــاً مع ما ظل يردده طوال سنوات من أن حكم اليمن أشبه بالرقص فوق رؤوس الثعابين، وتلويحه مؤخرًا إلى أن الثعابين لدغته، في إشارة إلى حادثة مسجد دار الرئاسة في ٣ يونيو ٢٠١١، والتي أصيب فيها الرئيس السابق، وقُتِلَ عدد من كبار معاونيه.

وفي سؤال آخر عن اتهامه بمحاباة أهله وأقاربه، وتوليتهم المناصب العليا في الدولة، رد صالح بطريقة غريبة: كل اليمنيين أقاربي.. ونحن دولة مؤسسات.

غير أن الحقيقة شيء آخر.

إن صالح، الذي لم ينل قسطـــاً من التعليم سوى ما تلقاه من دروس في كُتاب القرية، قرَب إليه إخوته من أمه، وآثرهم بالمناصب، كما قرَب أبناء منطقته، وزرعهم في الجيش ووظائف الدولة المهمة، وكافأ من باعوا رفاقهم، ومنهم شخص يسمى

محمد خميس، معطيـــاً إياهم مسؤولية الأمن السياسي، لتبدأ فترة مروعة على المثقفين اليمنيين.. فالأمن السياسي اعتقل منذ أواخر سبعينيات القرن العشرين وحتى الثمانينيات جُل المثقفين اليمنيين الناصريين، أو المتعاطفين مع الناصرية، أو الذين لا تعرف انتماءاهم السياسية..وخضع بعضهم لتعذيب مروع، خصوصـــاً من كانت له منهم علاقات بالانقلابيين، أو عُرف عنه تعاطفه معهم.

لكن اللافت أن الرئيس اليمني كان يردد باستمرار كلمة معينة: شعبي.

وآهٍ من أفاعيل وأباطيل ياء النسب.

فهذه الياء تجعل الشعب إقطاعية خاصة للحاكم.. الذي يظن أنه امتلك هذا الشعب، وأنه الرئيس الضرورة، الذي يتعلق أبناء هذا الوطن ببنطاله أو جلبابه باكين: يا أبي.. لا تتركنا وحدنا.

وأحمد منصور لم يسأل الرئيس صالح مباشرة عن أحمد آخر، هو نجل الرئيس اليمني، الذي أخذ يصعد في عهد والده، ويجمع في خزانته مجموعة من المناصب والرتب، بينها قيادة قوات الحرس الجمهوري.

مشهدٌ يذكرنا بما جرى من قبل في بلدٍ عربي آخر، هو سوريا، حين أخذ الرئيس الراحل حافظ الأسد يعد ابنه باسل لخلافته..

إلى أن توفي الابن في حادث سير عام ١٩٩٤، وسرعان ما انتقل الأب إلى ابنه بشار، الذي خلف حافظ الأسد في المنصب، بالرغم من وجود نائبٍ للرئيس.

إن المضحك المبكي أنهم أعادوا تفصيل الدستور السوري، ليكون على مقاس بشار، ومتناسبـــاً مع عمره، إذ أقر مجلس الشعب السوري تعديل الدستور، وخفض السن القانونية لتولي الرئاسة إلى الرابعة والثلاثين بدلا من ٤٠ عامـــاً. ويقول بعض الخبثاء إنه كان الأحرى بهم أن يزيدوا عمر بشار بضعة أعوام، بدلا من خفض سن الرئيس في الدستور.

وعلى رغم محاولة الإعلام الحكومي والصحف القومية في مصر تحسين صورة جمال مبارك، فإن محاولاته باءت بالفشل، ولم يتمكن من الفوز بشعبيةٍ تذكر في الشارع، مع أنه سعى إلى التسلل غلى قلوب الجمهور عبر اهتمامه ملف كرة القدم والمنتخب القومي، وظهوره المتكرر مع المنتخب، خلال الاحتفال بإنجازاته في إفريقيا، ومحاولته أن يبدو طبيعيـــاً وشعبيـــاً أثناء ظهوره في غرف اللاعبين أثناء الاحتفال. جمال مبارك، الذي لم يصرح يومـــاً قبل سقوط نظام مبارك برغبته في أن يشغل منصب الرئيس، زاد شخصيته بعدًا عن قلوب المصريين، الذين تشككوا في تطلعاته وطموحاته السياسية، ما جعلهم يكررون التساؤل: "لماذا يفعل جمال كل هذا؟" ، وزاد الأمر التباســاً

ترويج البعض لجمال إعلاميــا وسياسيــاً، وحملات دعم ترشحه للرئاسة في الانتخابات التي كان مقررًا إقامتها في ٢٠١١.

ومن تابع أعمال المؤتمرات السنوية للحزب الوطني الديمقراطي، منذ مطلع القرن الحادي والعشرين، وحتى ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١، سيجد أن القاسم المشترك على المنصة هو جمال مبارك.. ولم لا وقد كان وقتها الرجل الصاعد بسرعة الصاروخ، حتى أصبح أمين لجنة السياسات في الحزب الحاكم، الذي يرأسه والده؟! ووسط ذلك ،كنا نجد من يقول إنه لا داعي للقلق من احتمال خلافة جمال مبارك لوالده، الذي تجاوز سن الثمانين.

والشعوب قد تكتفي بالفرجة على ما يُراد بها ولا تتحرك، مع إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.. وأول تغييرٍ هو الإصلاح في مختلف قطاعات المجتمع، والقضاء على الفساد والجهل ونقص الوعي.. والكف عن السلبية القاتلة، التي جعلتنا ميراثــاً في صندوق السيد الرئيس.

جمال، الذي لم يستوعب غضبة الشعب المصري في ٢٥ يناير ٢٠١١، تدخل وعدل من خطابات أبيه أثناء الثورة، ولم يرض بأن يقدم مبارك بعض التنازلات للشعب. ورغم أن جمال أعلن استقالته من الحزب الوطني - بوابة الرئاسة - في ٥ فبراير ٢٠١١، فإن خطاب مبارك الأخير، قبل تنحيه، جاء مبتورًا، ويؤكد المقربون أن جمال تدخل في صياغة الخطاب، وأضاف ما

رآه هو مناسبـــًا، لإتاحة فرصة أخرى للصعود السياسي، أو الاندماج في المجتمع على أقل تقدير، من دون أن يطالبه الثوار بالقصاص أو المحاكمة، وهو ما حدث بالفعل.

تلك أمثلةٌ ثلاثة على الوراثة في دول عربية، يُفترض أنها ذات نظام جمهوري.. لا نريد أن ننكأ مزيدًا من الجراح، فنضيف إليها ما شهدته ليبيا تحت قيادة العقيد معمر القذافي، التي ظل يتردد فيها اسم نجله سيف الإسلام، حتى قُتل الأب، وسقط الابن في قبضة الثوار.. ولا ما كان في العراق أيام صدام حسين، ونجليّه قصي وعدي.

كانت هذه ممالك أو إمارات لما كان هذا شغلنا الشاغل – وتلك حكاية أخرى– غير أن العقد الاجتماعي بين الحاكم والمحكوم في دولنا بات في خبر "كان" وأخواتها.. فالحاكم يستبيح لنفسه حق التوريث السياسي، أو يمهد الطريق لابنه وفلذة كبده، كي يهبط على المنصب الرئاسي بالمظلات.. ويستعين في ذلك بأجهزة الأمن، ووسائل إعلام مملوكة للدولة أو تسير في فلكها، عملا بنصيحة عبد الحليم حافظ "أمرك يا سيدي".. وتجمعات هشة يقال عنها إنها مؤسسات تشريعية، مثل مجالس الموافقة وبرلمانات سلق القرارات.. وحاشية من ساسة وأصحاب أموال، تعرف أن من مصلحتها بقاء الفساد على ما هو عليه.

تقفز إلى الذاكرة الآن قصة عبد الله بن عمر بن الخطاب.. ذلك الفقيه الورع، الذي كان شديد الاقتداء بالسنة النبوية الشريفة، وكان من أبرز رواة الحديث الثقات.

ومع ذلك.. لم يختره الفاروق عمر وريثـــًا له.

بل إن عبد الله بن عمر ظل يرفض الخلافة حتى أواخر سنوات حياته.

يقول الحسن رضي الله عنه: "لما قُتِلَ عثمان بن عفان، قالوا لعبد الله بن عمر: إنك سيّد الناس وابن سيد الناس، فاخرج نبايع لك الناس.

قال: إن والله لئن استطعت لا يهراق بسببي محجمة من دم.

قالوا: لتخرجن أو لنقتلنك على فراشك.. فأعاد عليهم قوله الأول.

فأطمعوه، وخوّفوه، فما استقبلوا منه شيئـــًا".

الشعوب الحُرة تختار من توليه أمرها بوعيٍ وإرادة، ووفق أسلوب ديمقراطي نزيه.. ولا ترضى بأن تتحول إلى ياء نسبٍ على لسان الحاكم.. ولا تقبل أن تصبح إرثـــًا ينتظر صاحبه.

وما أدراكم من الوارثون هذه الأيام.

عُقدة سوريا.. في روسيا

الآن، وقد انتهت الانتخابات الرئاسية الروسية، بدأت الأنظار تتحول إلى الأزمة السورية.

والارتباط بين روسيا وسوريا واضح هذه الأيام، أكثر من أي وقتٍ مضى. إذ لا تزال روسيا متمسكة بموقفها من الأزمة السورية، وهي لا تعتزم – على ما يبدو– تغيير هذا الموقف، بعد عودة فلاديمير بوتن إلى الكرملين.

فبعدما جرى انتخابه رئيساً لولاية ثالثة، بعد ولايتين متتاليتين استمرتا من عام ٢٠٠٠ إلى ٢٠٠٨،أكد بوتن أنه ينبغي عدم توقع "تغيرات معينة" من موسكو، مشيرا إلى أن المسائل المتعلقة بسوريا، وأيضاً بإيران، تعالج بقرار إجماعي على أعلى مستوى في الدولة.

وزارة الخارجية الروسية أوضحت أن "الموقف الروسي من تسوية النزاع في سوريا لم يكن يوما مرتبطا بأحداث ظرفية، وهو لا يتقرر بناء على دورات انتخابية، خلافا لما يفعل بعض شركائنا الغربيين".

موقف موسكو قد يزيد الصورة تعقيدا، خاصة أن البعض يراهن على تغييرٍ ما في الموقف الروسي الداعم للسلطات السورية، قد يخفف من الغضب العربي، الذي أعقب استخدام

كل من روسيا والصين لحق النقض (الفيتو) في مجلس الأمن الدولي.

وإذا كانت الولايات المتحدة قد أعربت عن أملها في أن تتبنى موسكو "موقفا جديدا إزاء المأساة في سوريا"، فإن موسكو لا ترى الأمور من هذا المنظار.

تشدد روسيا على رفضها لأي تدخل في "التراع السوري"، وتطالب القوى الدولية بموقف متوازن من الأحداث التي تشهدها سوريا، غير أن هناك من يرى أن روسيا، التي لا تزال تبيع أسلحة للسلطات السورية، تعلن الحياد من جهة، وتنحاز إلى الرئيس السوري بشار الأسد من جهة أخرى.

وبين هؤلاء وهؤلاء، ترى المعارضة السورية أن موقف موسكو "يشجع" أعمال العنف، وتبدي تشككا في جدوى المقاربات الدبلوماسية والسياسية مع السلطات السورية، بالرغم من تصريحات كوفي أنان الأمين العام السابق للأمم المتحدة، التي دعا فيها المعارضة السورية للتعاون معه، من أجل "حل يحترم تطلعات الشعب السوري".

إنها العُقدة التي تنتظر حلا سريعــاً؛ لأنه ليس مقبولا أن يقف العالم مكتوف الأيدي أمام العنف المستمر منذ عام، منذ أن

انتفض السوريون ضد الرئيس بشار الأسد، فيما أصبح واحدة من أطول ثورات الربيع العربي، وأكثرها دموية.

السلاح يتكلم

في عالم حافل بالصراع، لا صوت يعلو فوق صوت صفقات التسلح.

وسباق التسلح هذه الأيام له أرقامه ودلالاته، التي لا تخطئها العين.

والسنوات الأخيرة ما عادت تعني سوى المزيد من العسكرة وشراء الأسلحة من جانب دول أو جماعات مسلحة.

فعلى الصعيد العالمي، فإن نقل الأسلحة ارتفع بنسبة ٢٤% خلال السنوات الخمس الماضية، مقارنة مع الفترة بين ٢٠٠٢ و ٢٠٠٦.

وبحسب تقرير المعهد الدولي لأبحاث السلام في ستوكهولم، لم يكن هناك سوى تأثير طفيف للربيع العربي على سوق التسلح، رغم أن نقل الأسلحة إلى الدول المعنية أثار جدلًا علنيـــاً وبرلمانيـــاً، في عدد من الدول المزودة بالأسلحة.

وبالأرقام، فإن واردات الأسلحة السورية كان ٧٢% منها مصدره روسيا في الفترة بين ٢٠٠٧ و ٢٠١١ وخصوصا عام ٢٠١١ مع تقديم بطاريات صواريخ أرض- جو من نوع بوك- ام ٢ اي وبطاريات الدفاع باستيون- بي، وهي أسلحة قد لا

تكون مستخدمة في العمليات العسكرية الحالية، لكنها تعزز القوة الدفاعية للسلطات السورية، في وجه أي تدخل خارجي محتمل.

من جهة أخرى، فإن البلدين وقعا السنة الماضية اتفاقـــاً لتسليم سوريا ٣٦ طائرة مقاتلة وتدريب من نوع ياك-١٣٠.

تسليح دمشق يأتي في توقيتٍ بالغ الدقة، في ظل فرض الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي حظرا على توريد الأسلحة للسلطات السورية، بسبب اتهامه بالعنف في قمع الاحتجاجات الشعبية. دعونا هنا نشير إلى ما نسبته صحيفة "الإندبندنت" البريطانية إلى نائب وزير الدفاع الروسي أناتولي أنتونوف، من أن بلاده ستلتزم بالعقود المبرمة مع سوريا، وذلك رغم التقارير التي تتحدث عن سقوط نحو عشرة آلاف قتيل منذ اندلاع الاحتجاجات الشعبية في سوريا العام الماضي!

في سياق دولي أكبر، نلاحظ ارتفاع قيمة الأسلحة المستوردة من سوريا، بنسبة ٥٨٠ في المئة، مقارنة بالكميات المستوردة بين ٢٠٠٣ و٢٠٠٦، ما نقل مستوى البلد في قائمة أكثر الدول المستوردة للسلاح من المرتبة ٦٨ إلى ٣٣.

ويتبين من التقرير أن استيراد الأسلحة التقليدية قد ارتفع بنسبة ٢٤ في المئة بين عام ٢٠٠٧ و٢٠١١، حيث كانت الولايات المتحدة المورد الأول، يليها روسيا فألمانيا ثم رومانيا.

وعلى رغم دعوة الرئيس الروسي فلاديمير بوتن إلى وقف سباق التسلح في العالم، فإنه أعلن في مقالة مكرسة للأمن القومي الروسي، نشرتها صحيفة "روسيسكايا غازيتا" بتاريخ ٢٠ فبراير ٢٠١٢، أن القوات المسلحة الروسية ستحصل خلال العقد المقبل على نماذج حديثة للأسلحة.

في مقالته هذه، قال بوتن ما نصه أن "القوات المسلحة ستجهز خلال العقد المقبل بأكثر من ٤٠٠ صاروخ باليستي حديث تطلق من الارض والغواصات، وبـ ٨ غواصات صاروخية استراتيجية وحوالي ٢٠ غواصة متعددة الاغراض، وأكثر من ٥٠ سفينة حربية، ونحو ١٠٠ جهاز فضائي للاغراض العسكرية، وأكثر من ٦٠٠ طائرة قتالية، بما في ذلك المقاتلات من الجيل الخامس، وما يزيد على ألف من المروحيات، و٢٨ منظومة صاروخية مضادة للجو من طراز "اس – ٤٠٠"، و٣٨ منظومة صاروخية مضادة للجو من طراز "فيتياز"، و١٠ مجمعات صاروخية من طراز "اسكندر – ام"، وأكثر من ٢٣٠٠ دبابة حديثة، وحوالي ٢٠٠٠ من المدافع الآلية، بالإضافة إلى ما يربو على ١٧ الف قطعة من الآليات العسكرية."

أرقام مخيفة، خصوصاً من سيد الكرملين، الذي ينافس واشنطن على كعكة توريد أسلحة للعالم.

يبقى القول إن سوق التسلح في آسيا شهدت نشاطاً كبيرًا بين ٢٠٠٧ و ٢٠١١ مع تصنيف الهند أول مستورد في العالم وتحول الصين إلى دولة مصدرة.

وشكلت الهند، أكبر مستورد في العالم ١٠% من الواردات العالمية متقدمة على كوريا الجنوبية (٦%) وباكستان والصين (٥%) وسنغافورة (٤%).

الخارطة السياسية توضح أن تسلح الهند وباكستان حلقة واحدة من مسلسل الصراع في شبه القارة الهندية، أما التسلح في الصين وكوريا الجنوبية، فهو يلامس التوتر الحاصل في شبه الجزيرة الكورية بين شطري كوريا، وما يعنيه ذلك بالنسبة لقوى إقليمية مثل الصين.

ومن الواضح أيضـــاً أن أبرز الدول المستوردة في آسيا تسعى إلى تطوير صناعتها الخاصة من الأسلحة، بهدف خفض اعتمادها على مصادر إمداد خارجية. وبالتالي فإن الصين، التي كانت أول مستورد في الفترة بين ٢٠٠٦ و ٢٠٠٧ تراجعت إلى المرتبة الرابعة، وتزامن هذا التراجع مع تقدم صناعة الأسلحة الصينية وصادراتها من الأسلحة.

تلك العسكرة تعني الكثير، وتلغي بجرة قلم كل حديث عن السلام وأسلحة الردع، وما إلى ذلك من مصطلحات، لا تعني شيئـــاً أمام آلة القتل أو أسلحة الدفاع عن النفس.. فالفرق بين الجانبين يتضاءل يومـــاً بعد آخر.

سيرة موجزة

- ياسر ثابت، صحفي مصري، من مواليد ألمانيا عام ١٩٦٤.

- حاصل على درجة الدكتوراه في الصحافة عام ٢٠٠٠.

- يشغل منصب مدير الأخبار في قناة سكاي نيوز عربية، أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، بدءًا من يونيو ٢٠١١. قبل ذلك، عمل منتجـــًا أول للأخبار في قناة الجزيرة في قطر عام ٢٠٠٢، ورئيســـًا لتحرير غرفة الأخبار في قناة الحرة في الولايات المتحدة عام ٢٠٠٧، ورئيســـًا للتحرير في قناة العربية في دبي، الإمارات العربية المتحدة، في العام نفسه .

- عمل في الصحافة المصرية المطبوعة في كل من "الأهرام" و"الدستور" و"العالم اليوم"، و"صوت الأمة" التي شغل منصب مدير تحريرها.

- له مؤلفاتٌ عدة، بينها "قصة الثروة في مصر" (دار ميريت، القاهرة ٢٠١٢)، "لحظات تويتر" (دار العين، القاهرة ٢٠١١)، "جرائم بالحبر السري" (مركز الحضارة العربية، القاهرة ٢٠١٠)، "حروب كرة القدم" (دار العين، القاهرة ٢٠١٠)، "فتوات وأفندية" (دار صفصافة، القاهرة ٢٠١٠)، "فيلم مصري طويل" (مركز الحضارة العربية، القاهرة ٢٠١٠)، "كتاب الرغبة" (الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت ٢٠١٠)، "جرائم

العاطفة في مصر النازفة" (الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت ٢٠٠٩)، "يوميات ساحر متقاعد" (دار العين، القاهرة ٢٠٠٩)، "قبل الطوفان: التاريخ الضائع للمحروسة في مدونة مصرية" (كتاب ميزان، القاهرة ٢٠٠٨)، "جمهورية الفوضى: قصة انحسار الوطن، وانكسار المواطن" (كتاب "ميزان"، القاهرة ٢٠٠٨)، "ذاكرة القرن العشرين" (الدار العربية للكتاب، القاهرة ٢٠٠١)، إضافة إلى كتاب "موسوعة كأس العالم" (مدبولي الصغير، القاهرة، ١٩٩٤).

– نالت مدونته، "قبل الطوفان"، جائزة الجمهور كأفضل مدونة عربية في عام ٢٠٠٨ في مسابقة دويتشه فيله العالمية للمدونات.

الفهـــرس